
أحمد الأنصاري
دفتر
التكوين
رواية
مدونة ابو عبدو

دفتر التكوين

الأنصاري، أحمد
دفتر التكوين / أحمد الأنصاري
روافد للنشر والتوزيع. 2016 ط أولى، القاهرة
107 ص ؛ 21 سم
1-رواية
2-العنوان
أ – المؤلف
رقم التصنيف: 813.008
رقم الإيداع: 26669 /2015
الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 751 -180 -3



روافد للنشر والتوزيع
القاهرة – ج م ع
تليفون 01222235071 2+
rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

تصميم الغلاف: نور إسلام

دفتر التكوين

رواية

أحمد الأنصاري

الإهداء

إلى صديق العمر...

إسلام رمضان

تمهيد

الصفحات والقطع المكتوبة بالخط الأسود بخط يد سالم الفيروزى.

الحياة والنهاية نقطتان. البريق والخبو.. البداية والنهاية لطرف الخيط. يظهر على السطح شخصان يلتحمان. طرفا المعادلة يتكونان. أنا وهو، هو وأنا.

طويت الورقة. تذكرت أن صاحب السطور السابقة هو العم سالم الفيزوزي آخر أعمام العائلة، لم أفهم ما حدث له إلا بعد استدعائي هاتفيا من جيران شقته. بعد سماع صوت صراخه المتواصل. هشموا مزلاج الباب، وفي حجرته وجد منكمشًا على الأرضية كجنين على جانبه مرتجفا، فتكرموا باستدعاء الطبيب، والاتصال على منزلي.. أنا خالد الفيروزي ابن أخيه الأكبر رحمه الله. عند وصولي تكرم جاري بتسليمي مفتاح البيت وروشتة الطبيب، فأحضرت الأدوية ومن الصيدلي عرفت أنها مهدئات وفيتامينات.

أشلاء الشقة متناثرة. حاولت بقدر ترتيب السجاد المنتفض والمقاعد المتفرقة والأوراق المبعثرة في كل ركن والتي منها قرأت السطور الثلاثة وعيني من حين لآخر تمطر الحجرة الثانية بأخر الرواق. حجرة المكتب، والتي بها تعلمت دروس اللغة الانجليزية في المرحلة الإعدادية. هو ضليع في شرح النص واستخراج كل ما يلزم. كان يمدني بالقصص خلال أجازة الصيف السنوية.. لم أهتم بقراءتها، أو في إعادتها. أنهيت ما استطعت عمله، وعيني تمطر حجرة المكتب أخرجت علبة السجائر. أشعلت واحدة. أتلذذ بها.. انقطع التيار الكهربي. اهتز قلبي من المفاجأة. بحثت في جيبي عن النجدة الضوئية. الموبايل. الظلام قبضني. التهوية رديئة. أقصى الزاوية برندة. فتحت الباب

المعدني. مقعد وحيد. نسائم الشتاء تجمد الأوصال. الطابق الثالث ليس بالمرتفع. البنايات المقابلة تجوس في الظلام. الشارع مقفر وبعض السيارات تقف مختبئة. فكرة النزول إلى الشارع مخيفة. حي الزهور هادئ بطبعه. أصوات نباح الكلاب عالقة في الصمت، وقد فعلها كلب من قبل وخرج عن الصمت وركض ورائي. معالم المنطقة لم تتغير. أتغيرت ملامح حجرة المكتب؟ كنت أمسك الكراسة. أقرأ. عمي يسمع. نظارة القراءة على أنفه المعكوف. السيجارة تآكلت في يدي وبدني تجمد. خرجت من البرندة. أغلقت الباب المنزلق المعدني. عيني رويدًا ألفت العتمة ويدي تضئ بالمحمول طريقي. الكابوس ليس الظلام، بل عودتي إلى حجرة النوم، وعلى الضوء الشحيح لا أجده.

وقد اختفى. حاولت ردع خوفي وخيالي، فقرأت المعوذتين وجلست على مقعد انتريه مريح الملمس. الحمام يواجهني وعلى يساري حجرة النوم وعلى يميني حائط يطوي خلفه رواقًا قصيرًا يؤدي إلى حجرة المكتب. هاتفت أمي. طمأنتها على الوضع. اقترحت علي المبيت لحد الصباح. أنهيت المكالمة والبطارية تئن من الضعف. مع استمرار الوقت لن تفلح في الصمود. المطبخ منزو في الركن. اجتزت العتبة ويدي تتلمس زر الإضاءة. غبي. ذاكرة رديئة. فعل لا إرادي. بحثت عن مشط كبريت.

أكيد قريب من موقد البوتجاز. وجدت الولاعة ذات الماسورة. كويس. أشعلت أكبر عين في الموقد. أين الشمع؟ ضروري بكل بيت. يا للحظ.. وجدت شمعدانًا ذا ثلاثة أعمدة وكيسا من الشمع

داخله. حملت الشمعدان. أسير بخطوات متمهلة. عيني تمطر باب حجرة المكتب. اقتربت بحذر. الإضاءة تتراجع خلفي. الباب على بعد ذراعين. أمسكت المقبض النحاسي الملتوي. المزلاج ثقيل الحركة. صوت الرفاص.. تيك.. تك.. الباب ثقيل الحركة. خيال جسدي يتذبذب على الكتب الموجودة بكل خلية. تلعثمت قدمي بالمتراكم على الأرضية. وضعت الشمعدان على المكتب وبيدي أفسح مكانًا له بين حواف الكتب. الكتب بكل شبر. جلست على المقعد الجلدي. لهب الشموع يحترق وخيوط الدخان شفاف يتراقص ليعكس مكتبة الحائط المنحنية نصف دائرة إلى حد سقف الحجرة. على المكتب أوراق.. دوسيهات.. أجندات.. كباية من الأقلام. أدراج المكتب الجانبية المتوازية ثقيلة. محشور بها أوراق وكتب. حتى ليصعب إغلاقها للنهاية. أما الدرج العريض الأفقي.. انفض انزاح بكل سهولة، لأجد دفترًا بغلاف أسود من الوجهين. أمسكته وقلبت دفتيه. عبارات مكتوبة بخط اليد. صفحات مشطوبة. خطوط تعبر الصفحات. ملاحظات على الهوامش. أفر الورق وأتوقف عند إحدى الصفحات:

أتسأل أبد. الحياة كانت (ألينا)، وإن كانت الآن بجانبي ونلتصق كجدارية معبد. أكانت الحياة بالقاهرة تغيرت أو حتى كنا قادرين على الذوبان في ثلوج دينبرو. كنا مدينة واحدة.

صفحة كاملة مكتوب بها الفقرة السابقة. قلبت الدفتر من بدايته:

لا أظن على أية حال. إن الكتابة في حد ذاتها لحظة حلم يمتد بك حد السماء (لو لها حد). أو لحظة. من سريان المخدر في معصمك، والنور يبعث من ركن مظلم. والرؤى الكونية تهل إليك. من ضمن الرؤى.. هاجس يلبسك إلى اللحد. في الخلود، ويظل الهاجس يراودك. بكتابتك لأجل البشرية!... أي بشرية؟

وما الداعي لإجبار القارئ في قراءة سطور من السخافات الجنسية والحداثية وأن تتحفز دور النشر لكل روائي مغمور. يكتب ويحلم (الحلم المعتاد السخيف) وهو تغير العالم.

أنا سالم الفيروزي الموهوب. نعم الموهوب والمساحة هنا تسمح لأقول بحرية كل شيء وأي شيء ولا التزام بسياسة دور النشر بالحذف أو الشطب، لذا سأكتب ما يحلو لي في الوقت الذي يحلو لي بما أني لن أنشر شيئًا يجذب القارئ ويبهره.. على أية حال أنت لا تبهر أحدًا إلا نفسك، وضعف تجاربك الشخصية أضافت إلى رصيدك خسائر ذاتية أيضًا.. لذا قررت أن أكتب عنه هو.. من هو؟

كنت مع زملاء في مقهى يقع بمنطقة وسط البلد. لا أتذكر اسمه الآن. نحلق بين الماضي والحاضر والذكريات عن ما تم وعن ما فات. أحضره أحد الأصدقاء وجلس صامتًا

ينظر لنا متابعًا بتلقائية. لا يضيف إلا الصمت لو صمتنا أو الضحك إذ ضحكنا أو حتى التبغ إن نفخنا. وراءه شئ ما؟ وثقت علاقتي به وهاتفته بعد ذلك وتقابلنا في يوم بعد ذلك وتقابلنا في يوم فرادى.

- أعرف أنك تبحث عن شيء.
- بل شيئ يبحث عني.
- قرأت روايتك الأولى (سكت وقال) والأخيرة. لماذا لم تنشرها؟

اندهشت منه: لا أعرف.. أشك بالمكتوب.. كيف قرأتها؟

- صديق عرضها علي وأعجبتني.
- لم تُعجب أحدًا لسوء الطالع، وأغلب من قرأها تجنب أن يكملها ورغم انتظاري التعليق عليها ولو بكلمة في كل مرة، إلا أنه لا يأتي أبدًا إلا في خيالي فقط.. وذلك بخلق مشهد جلوسي مع القارئ وهو يسألني بشغف عن كيف فعلت ذلك.. ومع اختفاء كل من يقرأها عني.. استسلمت للصمت وآثرت بعدها الصوم عن الكتابة.
- ولذا بعد الانتهاء من قراءتها بحثت عنك. لأتعرف عليك.
- ده شرف لي أن تكون الرواية سببًا للصداقة.

هدأ الكورنيش والنيل من ذباب الناس، وبدأت نسائم الليل تهف تريح أنفاسنا، فانتخبنا إحدى الأرائك نريح أفكارنا وأرواحنا الساجدة داخلنا.

قال (هو): سأمنحك قصة تكتبها.

عشقي لدينيبرو صدفة بكل ما تحمل الحياة من معنى.

تأخري بالمطار ساعات أدى لصدفة لقائي بأنيس الشاب التونسي، والذي بدوره ساعدني على التقدم للجامعة الوطنية للفلزات بدينيبرو، والتي بدورها أزاحت الجامعة الوطنية والتي تقع بمدينة خاركوف، والتي كانت مقصدي الرئيسي من بداية الرحلة والتي استغرقت عشرين ساعة: من القاهرة إلى تركيا إلى أوكرانيا. أما عن سبب التأخر بالمطار واحتجازي هو عدم إدراج اسمي على قائمة المتقدمين للجامعة.

وتحول الحوار مع موظف الجوازات إلى صراع في اللغة. يتحدث الروسية وأبادله بالإنجليزية واستمر الحوار إلى الحارة السد. كان يقف خلفي بالصف طالب سوري وحدث معه ذات السيناريو!

ما المطلوب؟ أحضروا لنا موظفًا هنديًا يتحدث الإنجليزية قال لنا: الشرطة لن تسمح لكم بالمرور إلا بعد دفع مائتي دولار. رشوة أم إجراء؟. رشوة حقيقية. أين إجراء؟. رشوة حقيقية. أين نحن؟ بالقاهرة أم دينيبرو؟

- لندفع في صمت أفضل (قالها الشاب السوري بانكسار)
- أنت تدفع أما أنا فلن أدفع مليمًا واحدًا.
- يا غبي إذا لم تدفع ستحجز بالمطار (قالها الهندي ورائحته تفرز عطرًا رديئًا).
- بل أنت الغبي.. أنا أعرف القواعد ولن أدفع

أراح السوري رأسه ودفع المال وخرج بالفعل، وتم حجزي لفترة طويلة تتخللها نظرات الحقد من شرطة المطار.

قلت له: ألم تشعر بالخوف وأنت وحيد ببلد غريب؟

- الخوف تتجرد منه وأنت غريب.. أنت عبرت كل تلك المسافة لتخاف!

أنيس لمحني وعرف نفسه. الصدفة الأعجب انتظاره لطالب لن يصل في الغالب. فاضطر للانتظار لأطول وقت ممكن. يملك موهبة حسن التوقع. قرأ المشهد. له شركة لتوظيف طلاب الجامعة. خرجنا من بوابة المطار وشهر سبتمبر يبدأ مراسمه. القاهرة حارة نهارًا.. لطيفة ليلًا على كافة الأنحاء.. السماء رمادية والشمس متجمدة وبخار الماء يخرج منك كتنين ثلجي يرتدي جاكتًا وجينزًا. درجة الحرارة ثلاث درجات على ترمومتر تابلو سيارة التاكسي. قلت لأنيس والتاكسي يسير:

- أريد جامعة هنا بدينيبرو.
- وأين كانت وجهتك؟

- جامعة خاركوف.
- أتريد الذهاب لها؟
- لا.. استبعدتها.
- بالقطار خمس ساعات تصل ولي أصدقاء هناك.
- لا.. أفضل دينيبرو.

لا أعرف إلى الآن سر التمسك بها وغرامي لها. اقترب التاكسي من مول جراند بلازا. أودعت كل النقود في حساب خاص ثم توجهنا إلى المدينة الجامعية، وأنهيت إجراء التقدم الجامعية، والليل بدوره قد أنهى اليوم وسجلت هاتف أنيس وشكرته على مساعدته.

ماذا يحدث؟ ومن يكون (هو)؟ أدرك الآن أن العم سالما يُسجل خواطره السابقة في هذا الدفتر أو مذكرات (هو) التي يحكيها.. حكاية داخل حكاية.. الأمر الآن تحول للعبة حل المعادلة والتي أتت برمز مجهول آخر يدعى (هو)، والذي كان من المفترض أن يبدأ أولًا بتفسير هويته؟

في المدينة الجامعية نزلت في حجرة بثلاثة أسرة، وتعرفت على مهدي الطالب الإيراني نزيل حجرة الجوار. مسلم شيعي يعيش في حجرة منفردة. الدولاب والكرسي من تصميمه، له دراية بأعمال النجارة، وساعدني كثيرًا في الحصول على مستلزمات من مول كرفان.

لغتي الإنجليزية جيدة والدراسة بدينيبرو بالروسية لذا ألزمتني الجامعة بالتقدم إلى كورس لغة روسية.. مكثف..

أحبطت أول الأمر. لأني لم أتهيأ للغة جديدة بعد وكنت أظن أن الإنجليزية تكفي بدينيبرو.

نهارًا تجولت في أروقة الجامعة ذات العشرة طوابق، كنت أبحث عن مكان للتدخين أو ركنًا أدخن فيه.. لا أحد يدخن! أين بقعة التسكع؟ تذكرت أيام جامعة عين شمس.. كل مكان فيها مُبَّاح.

بعد البحث والتحري عثرت على البقعة تحت الأرض. تحت مبنى الجامعة. في الكافيتريا.

سعد من الجزائر النزيل الثاني في الحجرة. نتحدث الإنجليزية لا يفهم لغتي العربية ولا أفهم لكنته الجزائرية، فضحكنا أن عربيين يلتقيان يتحدثان الإنجليزية ولا يفهمان العربية!

قال لي: يجب أن تشتري مرتبة للفراش.

- ومن أين؟
- كوستيا
- محل؟
- لا.. كوستيا شخص يساعدنا.

يسكن بجوار جامعة طب دينيبرو في مقطورة جنود من زمن الحرب العالمية الثانية. رجل تعدى السبعين. ذو سنة واحدة ظاهرة وشعر أشعث ورائحة كحول عتيقة تفوح من فمه. مشينًا في سرداب مظلم معه. مخزن قديم مهجور.

- سعر الواحدة 800 جيرفن
- أريد أقل (حركت كفي إلى أسفل)
- وفي بألف جيرفن.. وفي ب 200 مستعلمة والتوصيل على
- هي ما أريد.

بحثت بعدها عن مكان بدينيبرو يتحدث الإنجليزية. تعبت من لغة الإشارة.. أبدو كقرد برئ أفريقي. نادى أوسفيدا. التجمع يوم الخميس من كل أسبوع. دونت الهاتف والعنوان.

وفيه تعرفت على أو فتاة أوكرانية (آنا). ذهلت من زرقة العين ومن الشعر الأشقر. تفاجأت بعمرها الصغير. السابعة عشر!

كانت عضوًا في النادي ومنها عرفت (ميشا). الفتى الهادئ المبتسم ومنه عرفت الديسكو ومنه عرفت (علي الجزائري) في يوم كان قد تعارك فيه مع شاب سكران صفع فتاة أوكرانية، فغلى دمه ولكمه، بدون إشارة منه لكمت شابًا آخر حاول إمساكه من الخلف، وهربنا وأصوات زجاج البيرة يتدغدغ، وحاول تحفيزي للعودة ومواصلة المعركة، والشرطة آتية لا محالة ولو قبض علينا. يتم ترحيلنا. القانون يقف في صف الأوكراني والحكاية تمددت وحرفت مع الحكي في الجامعة والنادي والديسكو ولسان حالهم يقول: اتنين عرب يتعاركان لأجل بنت أوكرانية!

قال لي (هو) ونسائم ندى النيل تتخلل أنفاسنا:

الجزائري لا ينسى حقه أبدًا وإن تخاصمت معه الأفضل لك أن ترد له حقه، لأنه سيأخذه منك في أي وقت وسيرد لك الصاع صاعين.

كان العام الجديد قد اقترب وقررنا الاحتفال به في ويندو أوف أمريكا. مكان يتبع السفارة الأمريكية واتفقنا على تقديم ثلاث أغاني و (ميشا) لاعب جيتار جيد ولهجتي أهلتني لاختيار أغنية بالعربية وغنائها على أوتار الجيتار وبعدها أغنية روسية غنتها (آنا) وأخرى إنجليزية تقدمنا جميعًا للكورال بها.

أحبال الحنجرة تتغير بتغير المكان.. لا أحد في القاهرة أشاد بصوتي.

- صوتك جميل.

لمحتها: أشكرك.

- شعرك جميل كصوتك.. أنت عربي؟

شعري كخوذة رجل فضاء: مصري.

- أنا أمريكية.

ملامحها تشبه جيرانًا لنا على الحدود: أنا أتحدث عربي وإنجليش وأنت؟

- إنجليش وروسي وعبري.

كانت (فيتا) يهودية تعيش في أمريكا وأوكرانيا وتعمل في مشروع لتعليم اللغة الإنجليزية وتسكن على بعد ثلاث بنايات من المدينة الجامعية.

انتهى الحفل المتواضع وأثناء رحلة العودة في مترو الأنفاق قال لنا رجل ذو ملامح قاسية:

- أنت لا تتحدث هنا يا أفريقي (من لون بشرتي النيلية).

همس لي (علي) بالصمت فتعجبت من هدوئه غير المعتاد ولحظة نزولنا من العربة. قذف الرجل بقلم من الحبر ولعنه بالعنصرية وبإصبع يده الأوسط.

من الذي يتحدث؟ لم يذكر عمي سالم اسمًا له، ولماذا ينسبه بضمير الغائب (هو)؟

في كافيه. بوظا خاتا. كنا نجلس جميعًا على طاولة واحدة نتبادل الآراء ونتحدث بالإنجليزية والروسية وأحيانًا العربية.. الديكور بأغلب الكافيهات. حوائط مزينة بألواح من الخشب ودرجة من التدفئة ممتازة تدعك تخلع الجاكت وتجلس بحرية.

اقترحت عمل حفلة جود باي العام السابق قبل حفلة رأس السنة الجديدة. رحبوا بالفكرة الجديدة. والمقترح، وأضافت (أولينا) وهي صديقة انضمت لنا حديثًا إلى الشلة: إن بيتي الريفي يرحب بكم. بيت الجد.

ولأول مرة أرى الثلج الأبيض يكسي الروابي والسماء القطنية فوقنا بلا أمد. البيت الريفي الخشبي ذو طابقين وفناء خلفي به كل ما تحتاج له وكل ما تفكر فيه تجده.. خشب.. بنزين.. حبال أتى (علي) بطبلة شرقي وأنا أحضرت شيشة، وفي عرض الساحر لأفراد القبيلة.. الدخان الكثيف. الطعم العجيب. صوت الكركرة. دوائر الدخان المحلقة في حجرة (أولينا). الكل يشرب. الكل تخدر. تأثيرها لا يقارن بالماريجوانا أو الحشيش.. الإيحاء له سحر.

الجمال عندنا تسير في الشوارع.ز الجمل ثمنه أغلى من السيارة.. في نوع من الجمال له أجنحة.

ضحكت أولينا: الجمال تمشي لا تطير.

كان اعتقادًا راسخًا عندهم. إننا نعيش مع الجمال في الصحراء وكنت في بادئ الأمر أمتعض وأدافع عن تلك النظرة.. ثم سرعان ما وجدت أنه لا داعي لكل تلك الحرقة الفارغة ونحن نعيش في جهل مدقع من الأصل.

الألعاب النارية تضوي السماء. الشوارع ترقص لا تنام. السنة الجديدة تغير جلدها. شواء الباربيكيو مع كؤوس البيرة أنار فجر الليل وغطت الشلة في نوم عميق ما عدا أنا وميشا، والاحتفال لم ينته بعد. قال لي: ما رأيك نكمل اليوم ببيت عائلتي؟

موافق هيا بنا. اتصل بهم ولحسن الحظ أن أحد أقاربه قريب من نقطتنا فمر علينا، وفي الطريق ارتخت أجفاننا ولم نرمش إلا بعد توقف محرك السيارة عند البيت.

البيت أكبر وأرحب من سابقه. أول ما تجاوزت باب الفناء الخارجي وجدت عشرات من أزواج الأحذية المرصوصة على عتبة الباب، ذكرني بصلاة الجمعة في القاهرة. دخلنا لنجد الأقارب والأصدقاء ووالد ميشا. وجه ينضح بالحمرة الدائمة. رحب بي، ودخلنا حجرة السونا الروسي بعد أن ارتدينا شورتا وقبعة مخروطية.. نجلس داخل الحجرة في درجة حرارة ملتهبة ثم نخرج بعدها ونفتح باب البيت ونقفز بين أديم الثلج. الدفء الثلجي وكأنك تتلحف للتتدفأ بالثلج. جسدك يطاوعك وأعضاؤك تعمل بكفاءة. أدمنت التجربة وأعدت تكرارها أكثر من مرة. وبعدها تلبس ملابسك لتشعر أنك كائن ولد من جديد، وبين من يأكل ومن يشرب أمسك ميشا الجيتار والحروف العربية ترتخي على أوتاره بصوتي:

حبيبي يا ملك قلبي في الهوى

يا ملك قلبي في الهوا

خدني معاك.. خدني في الهوا

أنت داري بانشغالي ولا حبك شئ خيالي

حبيبي

اللحن مع العزف مع صوتي خطف الأضواء. الكل صافحني. الكل حضنني. الكل أحب صوتي. غناؤك رائع لنشرب نخب المصري.. في نخب المصري.. في نخب مصر.. في نخب الفراعنة. تقرع الأنخاب المقترحة والكل سعيد، ومن يدي سحبني (أناتولي) والد ميشا.

- لا تذهب معه (قالها ميشا بضحك) بيشرب كثيرًا.
- والمصري بيشرب أفضل منك (قالها أناتولي في جد) لا دعوة لك يا بني.. أنت خفيف الرأس.

ضحكنا وفي المطبخ. مائدة ومقاعد من خشب.

عرفت أن هذا البيت ملك لوالدي ميشا الروحيين. كل واحد بدينيبرو له أب روحي. كأس له وكأس لي. سعيد لأنه ولأول مرة يقابل شخصًا عربيًا متحضرًا. لا أؤمن بالله لأنه لا وجود له فكيف أؤمن به؟ والنهاية تعيسة.. وما مغزى العالم.. دعنا نستمتع الآن ما دامت النهاية إلى العدم. قالها ببؤس سعيد.

الحفلة أوشكت على الانتهاء ووسائل النقل تنتهي في الحادية عشرة والآن الواحدة ليلًا. فعقدت ياقة الجاكت لأتدثر من السقيع. تعالى معنا إلى البيت. قالها (ميشا) بتلقائية، فأزاح عني الحرج. ركبنا السيارة ووصلنا إلى بيت متواضع من طابق أرضي ودلفت إلى حجرة بفراش واحد ونمت بعمق بعد قضاء يومين متواصلين بلا انقطاع، ولأول

مرة ومنذ وصولي إلى دينيبرو أشعر بالحرية المطلقة. لم أستيقظ على صوت أحد. الهدوء في كل أرجاء البيت متواصل. تحركت من خارج الحجرة لمحني أناتولي وبأدب جم قال: لم نقصد أن نوقظك.

لا أبدًا بالعكس.

أثناء تناولي الفطور خطرت لي فكرة. فتحت حقيبتي وتعبيرًا لهم عن شكري وامتناني. أخرجت زجاجة شامبانيا هدية لأناتولي لأجده يمسك في يديه زجاجة من النبيذ. بارتغين. زجاجة من النبيذ. معشوقتي ليهديني أيها.. القلوب عند بعضها يا عم (أناتولي).

* * * *

ليلًا في حجرة سعيد (التونسي) ومعنا فؤاد (الجزائري) ورابعنا المارجوانا. نشرب وننقض أحلام صدورنا. أغلب أحلامهم الهجرة إلى فرنسا. تظل أوكرانيا مجرد وصلة والدراسة بها مجرد غطاء شرعي للإقامة، وكل القصص عن حكايات الهروب تتشابه وسامي (المصري) قد فعلها وهرب.. كيف؟

كان شابًا قادمًا من الشرقية. شعر قصير مخفف من الفودين. قليل الكلام. أرسلتني الجامعة للتحدث معه وقد تحسنت لغتي الروسية.. انتفض من طول شعري الكث كالأفارقة

وأشرق وجهه فور تحدثي العامية معه.

- تحتاج لسداد ثلاثة آلاف دولار للإقامة في الجامعة.
- أقل مبلغ ممكن أدفعه؟
- ثلاثمائة دولار إقامة لشهر وتترك الباسبور للجامعة.

مر أسبوع وفؤاد يهمس لي: ها يا مصري.. سامي هيهرب إمتى؟

- يهرب؟
- أنا بسمعه على الفون بيتكلم مع ناس.. ها إمتى يا مصري؟
- والله العظيم ما أعرف أنه هيهرب.
- انتوا يا مصريين زي بعض وأكيد هو هيقولك.

كان يرقد في حجرته ولا يتحدث إلى أحد وفي يوم قال لي: عايز أروح كييف.. أسجل نفسي في السفارة المصرية.

- ده مشوار طويل تسع ساعات على الأقل.. وممكن تأجله شوية ده مجرد إجراء روتيني.. أنا حتى غير مسجل.
- لازم أروح السفارة (قالها بإصرار)

شرحت له المواصلات واقترض مني مائة جرفين.

- أنا يعني هروح فين.. راجع راجع الجامعة.

واختفى بعدها. بحثت عنه في الجامعة.. الإشاعة تتواتر أني تواطأت معه في الهروب.. علي وفؤاد لم يصدقا قصتي معه.

وبعد سنة. رن هاتفي وتحدث معي. مكث في كييف سبعة أشهر ثم جماعة لبنانية رتبت أوراقه وهربته إلى المانيا مقابل عشرة آلاف يورو والرحلة كانت كالآتي:

من كييف إلى النمسا إلى بولندا وسباحة حتى وصل إلى المانيا

الليل السائر بي في الحجرة المظلمة بضئ الشمعدان يثير التساؤل عن (ألينا).. الاسم الذي ذكر بين الصفحات.. لأفر الأوراق.. عثرت على فصل لها.

قلت لـ (هو) والليل والنيل ينصتان:

أجربت الحب؟

حاول اختيار الكلمات.. بادر فقال:

هو سؤال جدلي.. يستمر إلى الأبد.. ينتهي بك الطريق إلى السؤال الأكثر جدلية.. هل هو الحب المنشود؟

رأيتها قبل رأس السنة بأسبوع. وجه بيضاوي شفاف وخصلات من الذهب تسيح على العيون الزرقاء كنبع الماء الصافي. تحولنا إلى أحجار فور رؤيتها قال علي: البنت دي حلوة.

- أكيد نقدر نشوفها تاني.
- البنت دي لي يا مصري.
- أوكى.. لو قدرت أظبطها تبقى ليك.

كنا قد تجمعنا أمام أكبر شجرة كريسماس بدينيبرو. نحتفل مع المدينة ونشرب بسخاء ومن وراء الرؤوس ألمح عينها ترمق وبالي يعصف.

في اليوم التالي تكلمت معاها ورحبت بمعرفتي عن طريق يوم العركة في الديسكو.. الحروف تخرج منها بعفوية. تبحث عن أحد يحب الحياة. يستمتع بها. أغلب أصدقائها خلال السنوات الماضية. لا يفهمون كيف يعيشون الحياة.. وأنا هذا الشخص الذي أتى من القاهرة، وخرج من النيل عاريًا قادر على ذلك. يعني أنت تقدر تعزمني على الحفلة القادمة؟ طبعًا أكيد وفي سوشي بارتي صينية كمان.

انضمت إلى الشلة ومن يومها لازمتنا في كل مكان، وفي الصيف سافرنا إلى مدينة يالطا المطلة على البحر والجبال تحاصرنا من كل مكان على شاطئ البحر ليلًا نشرب البيرة وندخن الشيشة ونبادلها بيننا.. الكحول داعبني قلت لها: في لعبة بنلعبها في مصر بالشيشة.

- ما هي؟
- أن أسحب شهيقًا وأزفره في الفم، ليخرج بعدها الدخان أكثر كثافة.
- حقيقي؟

- لنجرب.

أول مرة ضغطت على شفاها فضحكت وفي الثانية عصرت شفتي ولسانها كربجني وفي الثالثة حضنتني بقوة.

كان (علي) في علاقة معها. وقتها لم يحفل بما يحدث وقبل بأنها مجرد قبل بريئة.

كنا ننام نحن الثلاثة على فراش واحد.

قلت ل (هو): تمارسوا سكس جماعي؟

ضحك هو بجنون وبصوت أيقظ بائع الشاي الناعس على سور الكورنيش. قال وهو يمسح دموع الضحك: لا أكيد.. عندما تقضي أجازة، وتريد توفير التكاليف. أحد السبل أن تنام بجوار أي شخص ولو فتاة في حجرة واحدة بدون وجود أية وسيلة للتفكير بهذه الأمور.. أظن أن أفلام البورنو أتت على خيالك ودمرته.. (ضحكت بدوري).. لنعود إلى ألينا

في صباح اليوم التالي تناولنا الفطور قلت لها: أنا آسف.

- على إيه؟
- ولو تماديت بالأمس.
- مجرد لعبة.
- أنا حسيت أني ضايقتك!

لم ترد.. أكانت مجرد قبل بريئة والكحول غلف طعمها. أشك!

بعدها عدت إلى القاهرة في أجازة ثلاثة أسابيع ومن لهفتها لعودتي تأكدت من شعورها ناحيتي على الأقل، وعدت مرة أخرى إلى دينيبرو، واشتغلنا في المنظمة الدولية لاستقبال الأجانب.. نأخذ من يأتي من جنسيات ونخرج بهم إلى النادي ونرقص ونسكر ونجلس.

وفي الديسكو قلت لها:

- على فكرة أنت لا تجيدين التقبيل.
- طيب شوف كده. (وغمرتني بفيض من الشهد)

لم أشك للحظة من مشاعرها، وقد عثرت وقتها على حجرة متواضعة لأعيش بها منفردًا وكانت حجرتي المشتركة باقية أيضًا، وعند اقتراب عيد ميلادها. اقترحت عليها الإحتفال به أنا وهي فقط، ويكون في اليوم السابق له وفي التالي نكون مع الأصدقاء. قفزت بجنون من الفكرة والقاعدة معروفة بالطبع: لا أحد يعلم بالأمر. اتصلت بها ذلك اليوم لتأتي لحجرتي لتساعدني في دروس اللغة الروسية وبعد أن أنجزنا ما تم قلت لها: النهاردة عيد ميلادك.. عايزة إيه؟

- نسهر ونسكر.
- أنا معايا مفاجأة لك.. ماريجوانا وفودكا.

طارت من السعادة والجزع..

لففت سيجارتين وشربنا نصف الزجاجة.

- أنا مبسوطة فشخ (قالتها في تنهيدة)

قبلت الخد الناعم ويدي تتحسس البرتقالة المنتصبة وقشعريرة تسري كمد البحر وأصابعي ترفع (البودي) فأمسكت يدي قائلة: تذكر.. إننا أصدقاء فقط. هززت رأسي وتلاحمنا على مهل.. ساقاها الطويلتان تزحف وروحي فوقها.. تشهق فأشبق وتقهر فأشبع.. جسد (ألينا) له ماض يعود بك للبدايات. بداية التجربة.. القشعريرة.. حرارة الأطراف.. تراكم الإرتواء.. شبق الشبع.. صبرت لعام كامل معها والصداقة تخفي بيننا بركانًا من الحمم والسيخ يحمي ويطرق وطيف (علي) معي يطرق، وكأننا نطرق معًا جليد دينيبرو بلا هوادة.

لبسنا وحرارة أجسادنا تدفئنا وخرجنا إلى النادي لنكمل السهرة. صدمنا بفيتا بالصدفة. نظرت لنا في ريبة: رايحين على فين ومين معاكم؟

- أصدقاء في النادي (وطبعًا لا أحد ينتظرنا ولا نيلة)

كشفت الكذبة بسهولة.. فأوصيتها بعدم الإفصاح عنا وسهرنا قليلًا معها، وعدنا من جديد إلى حجرتي معها، ودحرجنا الكرة من جديد حتى الفجر ونمنا بعدها لحد الظهيرة، وفي اليوم التالي من المفترض أن نذهب للاحتفال مع الشلة. نزلنا وإلى مسافة تركتها تذهب إليهم أولًا وبعدها أتحرك لهم. صعدت إلى حجرة (ميشا) وأنا بعدها، ونظرات الشك وآثار السكر مفضوحة علينا.

بعدها بأيام غيرت لهجتي معها.. لا أعرف ما حدث.. نفسي اتسدت منها أو شيء كان صعب المنال لعام وحصلت عليه في ليلة.. لم أفهم ذاتي بعد، ولكن بعدها بأسبوع قفز لي شبحها من جديد. آهة اللذة وارتواء الألم.. فدبرت موعدًا للقاء برغم من أن الألم.. فدبرت موعدًا للقاء برغم أن حجرة المدينة الجامعية مشغولة وحجرتي الخاصة محجوزة لأيام.. قابلت فؤاد واقترضت منه المفتاح.

- ماذا ستفعل ؟ (ولمح ألينا معي) (انت عارف لو (علي) عرف إيه اللي هيحصل؟
- (علي) لن يعرف.
- يا مصري هتعمل مشاكل.
- لا مشاكل.. (علي) لن يعرف.

لا تفسير للعلاقة سوى أنها تميل إلى (علي) وتنام معي.. أنا لا أحبها حب العاطفة والزواج بل حب الجسد، وبرغم كل كلام الغرام تقول لي: أنت لا تُحبني وتنام مع فتيات غيري.

تطورت العلاقة بعد ذلك إلى الصراحة العارية من كل شيء. تسألني مع من نمت ودرجة كفاءتها وأسرد لها فتضحك وتبادلني الوضع وتفضح فأفضحك.. هل لو تزوجنا كان الوضع اختلف؟ الارتباط الأبدي السحري! لم أتملص بعد من شرقيتي! وفكرة الزواج إلا من مصرية!

* * *

الأيام تركض كجمر يحترق، وأسافر معها إلى قريتها، عائلة فقيرة وبيت بسيط على أرض زراعية منبسطة من القرى النائية، وفي طريق عودتنا حكت عن الحياة البائسة من الطفولة واليرقة تحولت إلى فراشة تطير إلى بيت الطلبة للدراسة، هروبًا من شقاء حياة الريف ومرار الماضي.

رجعنا على يالطة وصعدنا الجبل وتلاحمنا في قمته نهزه هزًا.. الغابة تحتنا تلحفنا بأوراقها ونمنا على حشائشها، والليل ونجومه ترسم خطوط القدر على ملامحنا. أنحب بعض ؟! (هي قالت)

- أنا لا أُحبك (قلتها وإحساسي يقبل القسمة على نصفين).
- أعلم ذلك.. أحنا مجرد Fukien Bodies
- ممكن تقولي كده.
- ولو احنا مجرد كده.. ليه لم نبعد عن بعض.
- لا أعرف.. حقيقي لا أعرف (قلتها بصدق).

رجعنا إلى دينيبرو ولسان حالنا يقول: لا أحد يعلم بما حدث.

شهر مر وتعود لي حائرة كبحيرة مقطعة الوجه.

- لا نقود معي.
- كم تحتاجي؟

- لا .. لن آخذ منك نقودًا.. أنت مُغترب وتحتاج لكل قرش معك ثم.. أنا أحتاج لأربعة آلاف وكل ما كان معي صرفته معك في السفر وأنت تعلم ذلك.

إلينا تعيش حياة الطبقة الوسطى وتحاول بكل الطرق البذخ والسهر انتقامًا من حالة الشعور بالفقر وهي لم تتبرأ منه على أية حال.

- رجل معجب بي من طرف صديقتي.
- أنتِ ناوية على طريق الدعارة.

سكتت ودموع تحتشد.. تتكشف: أنت تعرف عني كده؟.. أنت صديقي.. إزاي تفكر كده ؟

- أنا لم أفكر.. أنتِ من صرح.. ولو عايزه رجال مستعد أحضر لك بدل الواحد عشرة (كيف قلت ذلك لا أعرف؟).
- أنا مش عاهرة.. أنا جايه أسألك..
- أنتِ حرة.

صمتت. ثم قلت لها: عندي فكرة.. خدي رقم هاتفه من صديقتك.. هو عمره كام؟

- فوق الخمسين.

شرحت لها الخطة ونفذتها بكل حرف قلته لها.

القاعدة تقول: إن الرجل لو نامت معه لن تحصل على شيء، ولذا هاتفته لثلاثة أيام متواصلة ثم صمتت صمت

القبور، سيحاول أن يُكلمك بأية طريقة.. اتركي الهاتف يرن بلا صاحب وبعدها بأيام لو لم يهاتفك بادري وكلميه واطلبي منه المبلغ، وحددي مكانًا عامًا للمقابلة، وخذي المال واختفي عنه كملح البحر.. هو لا يعرف عنوانك وصديقتك لا تعرف عنك شيئًا.. وفعلتها ألينا وحصدت المبلغ.

بدأت تطبق القاعدة وتستمد الرحيق من دمى وتمارس مع الكل ما تحتاج الحصول عليه إلا الجنس.. بقاء الفحم على حاله يساعد على بقائه، وفي إحدى الحفلات الصاخبة بمنزل (بوجدان) الشاب الوسيم الغني.. فارع الطول.

الصخب قد تجاوز أي مدى وكل البنات تنتظر إشارة منه وعلمت أن الحفلة مُدبرة خصيصًا لألينا لتكون ضحيته.. لا فتاة تقاوم إغراء عين بوجدان ودعابته.. وشدها إلى حجرته، وبالصدفة وصل علي إلى الحفلة ليبحث عنها، ويفتح باب الحجرة ليجد بوجدان يُقطر ألينا.. أغلق الباب وعلى طول الطريق إلى المدينة الجامعية يسب ويلعن.. قابلني قائلًا:

- شرموطة يا مصري.
- أنت هتتجوزها يعني؟
- لا.. شرموطة وتنام مع أي حد.
- ما دام قلت ده.. لا تُزعل حالك (ولا أتصور لو علم بعلاقتي معها ماذا كان سيحدث؟)
- قلت لـ (هو): ومتى كشف علاقتك بها؟

علي عرف بالأمر (صمت طويلًا ثم قال) سأقول لك ما حدث لكن ليس الآن.. لا تنس إني صاحب الحكاية، ومن حقي اختيار الإجابة، ولكن تذكر (وأشار بأصبعه) إن النهاية تجلب كل النهايات.

حاولت بعد كلمة النهايات فر الصفحات والفصول، والظلام طلى الحجرة إلا من بقعة الشمعدان، وبعد يأس فضلت العودة إلى الفصل التالي لفصل (سامي) للسير على ترتيب حكي (هو).

صراخ من الحجرة.. في المدينة الجامعية من حجرتي ذات الثلاثة أسرة.. المزلاج مُغلق. نيال (السوداني) يصرخ وسعد (الجزائري) يشتمه بأقذع الألفاظ.

- ساعدوني.. سعد هيدبحني (قالها بكل اللغات).

افتح يا سعد الباب.. الصراخ يتواصل والزجاج يتكسر، ورواق الحجرات يزدحم بالطلبة، أمن الجامعة يصل. يكسر المزلاج. يقبض في سعد. دماء على يديه، ونيال مذعور وعينه تنضح بالدم. أثاث الحجرة مُهشم وزجاج النافذة مُشقق. لم أندهش كثيرًا من المشهد، وسأعود بك ستة أشهر قبل الحصول على الحجرة الجديدة المنفردة بالطابع الرابع وكانت الحجرة عن طريق الرشوة لمديرة الجامعة، زجاجة شامبانيا وعلبة شيكولات فاخرة، الطابع الرابع شبه مهجور، واسمي مدون في الورق مع أشخاص وهمية.. أشباح.. لأن قانون الجامعات يمنع الحصول على حجرة منفردة.

وأما عن حجرة المعركة السابقة، فكنت قد نزلت بها فور وصولي إلى دينيرو مع سعد ونيال.

استدعيت للتحقيق كشاهد عيان، نيال مبعوث بمنحة من الحكومة السودانية للحصول على شهادة بكالوريوس هندسة البترول؛ حياته منذ وصوله غريبة.. ينام ساعات تتجاوز الإثنى عشرة ودائمًا يشعر بالبرد، ولا يفارق الحجرة، ولا ينزل إلى الشارع يختلط بالعامة لضعف لغته الروسية بالإضافة إلى إنجليزيته الهزيلة وعربيته الثقيلة، أما سعد.. مسلم متدين، لا يشرب الكحوليات يُصلي كل الفروض.

وفي ليل أحد الأيام ابتسم له سعد وقال: أدعوك يا نيال لدخول الإسلام.

ابتسم لي لنضحك ونرى ردة فعله: أنا مسيحي ولم أدْعُك إلى المسيحية ثم إننا كلنا نعبد ربًا واحدًا.

- لا يا نيال.. أنت تعرف وأنا أعرف.. نؤمن بالنبي عيسى كنبي أما أنتم فتؤمنون بأنه الرب (قالها سعد بحسن نية).

كانت النتيجة استدعاؤنا للتحقيق بعدها بيومين واتهامنا بذبحه إن لم يدخل الإسلام، ولاحظنا عليه أنه ينام بعدنا دائمًا.

كان شديد الإهمال في نظافة الحجرة، وإن قال له أحد نظف يرد: هو أنا عبد عندك!

ولشهر كامل لم ترسل له السفارة النقود، فقررنا أن نقرضه المال، والغريب أن بعدها معاملته الجافة لم تلن أبدًا كعود الحطب، والصدفة أيضًا أدت إلى الدراسة معه في نفس صف اللغة الروسية، وتعارك معي في الفصل لأنه تخيل أننا نضحك عليه من وراء ظهره وشتمني بالمصري وتم التحقيق معنا والكل شهد في جانبي، وتم نقله إلى صف آخر وأسرعت بالتالي مديرة الجامعة بنقلي إلى الدور الرابع في الحجرة الخاصة.. فقضى سعد معه شهورًا متواصلة من المشاكسات والعراك، وفي آخر الأسبوع تعمد أن يرعبه.. فكان كل يوم ليلًا يأتي بسكين ومسن ويبدأ معه حفلة الرعب.

– أنت هتدبحني.. أكيد هتدبحني.. أنت مجنون.

لحد فيضان سعد، وستر الله أنها مجرد خدوش سطحية لنيال، ولو كان الأمن تأخر لا أحد يعلم ماذا كان سيحدث؟ وتم غلق التحقيق على تحمل تكاليف إصلاح الحجرة مناصفة بين الاثنين ونقل كل واحد إلى حجرة أخرى، وظل نيال تسعة أشهر بدون نقود، وتم ترحيله لبلاده.

أغرب ما قال لنا ذات مرة أن مهر العروسة عندهم بالبقر.. لو البنية نص جمال بتبجا مائة بجرة.. ولو جمال بتبجا مائة بجرة، ولو حلوة .. جميلة يعني طويلة القامة.. بتبجا ثلاثمائة بجرة.

* * *

على الشات

- ازيك يا حبيبي (مكتوبة باللغة العربية) كتبتها (اوليا).
- كده من أول مرة (مكتوبة باللغة الروسية) (كتبتها)
- تتحدثين العربية؟
- أعيش مع صديقة سعودية.

كنت أتحدث مع أوليا على الموقع الروسي (في كي)

الصورة تقول: شعر قصير، جسد مموج من الصدر إلى الخصر، أما المعلومات الشخصية تعيش في دينيبرو وعمرها في الخامسة والثلاثين. ما أطيب عمرها! منذ شهر نتحدث وحانت لحظة اللقاء العظيمة لتحويل أحلام الخيال لواقع.

- عايز أقابلك.

للأسف

- ؟
- أعيش في لندن.
- آو بس
- من ست سنوات.. أقيم في لندن ولم آت إلى دينيرو.

وعندما أتمت الخامسة عشرة هاجرت إلى ألمانيا وقامت بلجوء سياسي ثم حصلت على الجنسية، وبعدها سافرت إلى لندن وتزوجت رجل من أصل أفريقي، وأنجبت منه بنتًا الآن تبلغ ستة أعوام.

بعدها حدث كل شيء في أسبوعين.

سافرت إلى تركيا و (أوليا) ترسل على الإيميل رسالة: حبيبي العربي أنت فين... أنا آتية. لم أر الرسالة إلا بعد أسبوعين من تاريخ عودتي إلى دينيبرو، فأصبت بأسف شديد والأكونت مغلق، فتركت رقم هاتفي على الإيميل الخاص بها لو لم تسافر!

بعدها بأسبوعين في وسط بلد دينيبرو ومعي سارة (تونسية) نتمشى بين دوائر الزرع والدكك الخشبية. لمحت امرأة على مسافة أمتار.

- هو في حاجة ؟ قالتها سارة.

حاولت الاقتراب بحذر من الخلف والتفتت صابغة بعينها ملامحي وشعري الكث كخوذة رجل الفضاء.

- أنت هو العربي (قالت أوليا بدهشة وبإنجليزية رصينة).

وبحبور وعين لامعة تعانقنا كأصدقاء قدامى. كانت تسير مع فتاة من العائلة.

- افتحي الإيميل ستجدين رسالة برقم هاتفي.

لم تصدق ما قلت، وأمسكت الهاتف مبتسمة.

- طيب أقدر أقابلك.
- آه أكيد نرتب على الفون.

تصافحنا والكلام يهرب منا من المفاجأة وخيالي يرسم الجسد القصير البض المليء والشعر الأسود القصير المتهدل على الجبهة، وفي طريق عودتي أوصلت سارة لأقرب وسيلة نقل لأعود إلى المكان من جديد لأحاول العثور عليها، وقد مرت ساعتان من الوقت، فجلست وبيدي زجاجة من البيرة ومن ورائي أتى صوت أنثوي يقول: حرام تشرب.. انت مسلم.

أوليا من جديد.. الغريب أن نداء بداخلي كان يقول أني سأجدها وكل ما عليَّ أن أنتظر!

- أين قريبتك ؟
- أشا .. عادت إلى المنزل.

جلسنا نشرب ونحكي ونضحك.

- رمضان بعد يومين.. كيف سنتقابل؟
- والله كنت ناسي .. رمضان في القاهرة فقط.

تعرف معلومات كثيرة عن حياة المسلمين من صديقتها السعودية.

ووصلنا إلى الحادية عشرة، والليل يقصف برودة صيفية منعشة.

- والكلام لا ينتهي ولا وسيلة الآن للعودة للبيت سوى السير على الأقدام (قالتها ضاحكة)
- لا تقلقي سأوصلك إلى البيت.

مشينا حتى عثرنا على تاكسي فاستقلته، وأكملت طريقي للبيت وهاتفتها فور وصولي لتقول لي بدهشة:

- تتصور لا أحد من قبل اتصل بي ليطمئن عليَّ.

في عصر اليوم التالي هاتفتني:

- بتشرب ماريجوانا ؟
- آه بشرب.. عايزه ؟
- تقدر تجيب وتأتي إلى البيت.
- حاضر.

كان بيت بنت العم واستقبلتني أوليا بفستان تفاحي اللون والرائحة.

- حد هيشرب معانا؟
- أنت مجنون.. لا أكيد.. أنا وأنت فقط.

تمشينا إلى حديقة مختبئة بقلب الغابة ذات أغصان كثيفة والشقق ينحدر يقبس اللون من السماء.

- أنتِ أجمل امرأة بدينيبرو.

نظرت بريبة:

- أنا أعلم ذلك على فكرة.
- بتشربي من فترة؟
- على فترات وبجرعات بسيطة.
- أنتِ لا تعيشين لوحدك؟

- في لندن أعيش مع ابنتي.
- وبدينيبرو؟
- أجازة قصيرة وأعود للندن.
- عايز أنام معاك..
- ضحكت وقالت: أنت بتحلم..

البحيرة أمامنا صامتة. وقالت بتساؤل: عايزة حاجة منك بس خجلانة.

- نعمل سكس.. أنا موافق (قلتها في سرعة).

ضحكت من القلب. ألا تفكر غير به! .. عايزه أروح ديسكو..

- أرتب وأكلمك.
- بجد!

(حضتنتني بود ناعم وفمي يقترب منها فحاشت وجنتها بدهاء لأطبع قبلة عليها).

بعدها بأيام اتصلت بها، وتقابلنا أمام نادي ليلي من أغلى نوادي دينيبرو.. تذكرة الدخول مائتا جيرفن.

- أنت مجنون! هندخل إزاي؟
- لي صديق في الداخل لا تقلقي.

هاتفت بوجدان الشاب الوسيم صديق ألينا، وقد أتى (ميشا) وغمز لي وهمس: هشام معاها؟

ضحكت.. كانت ترتدي فستانًا قصيرًا ينحت الخصر المصبوب.. ذكرتني بنساء القاهرة في الأزقة الضيقة.. العريضة العانقة مع الخصر والثدي المدمج.

رقصنا.. سكرنا.. تعانقنا.. ورمى بوجدان أوليا قائلًا: عمرك كام سنة؟

سكتت. تضايقت من خبثه. قلت له: أنت مش محترم.. حد يسأل بنت عمرك كام سنة؟! ضحكت وسكت.. وأكملت: عمرها 24 سنة.. هي أكبر منك .. انبسطت من الرد وردت روحها.

وما زال شبقي لم يُرد بعد ويبحث عن مصب.

– أنا تعبت تعالي نخرج.

البحر والظلمة اتحدا، وعلى جذع شجرة جلست وهي تقف.

– أنا خائفة على الفستان.

– تعالي على (حجري).

ترددت وبانسياب نزلت وبجانبها جلست، وبيد أحطت الخصر من الخلف وبالأخرى على ركبتها أرحت، والفستان انحصر كالنيل بموسم الجزر.

أنا ثقيلة عليك؟ أنا مبسوط لا تقلقي. فلتت ضحكة مائعة. قربت شفتي فقربت فمها ليذوبا وأناملي تداعب

الصدر الصارخ وبالأخرى تبحث عن السوستة الخلفية.. تملصت مني.. أنت سكران، وفزت قائمة.

- ما تيجي تباتي عندي؟
- مينفعش ننام مع بعض.

للأسف أوليا لا تسكر وتشرب بحساب دائمًا.

- تعالي أوصلك البيت.
- لا كل واحد يروح بيته.

هي تفكر.. تراعي فرق العمر بيننا.

آخر سلاح معي: أنا بحبك.

- أنت عبيط.. أنا في لندن وأنت بدينيبرو.
- أنا أحبك.
- انت مجنون.

في آخر يوم تقابلنا فيه في المطار.. قلت لها:

- أنت سنجل.. مصاحبة؟
- أنا وحيدة حتى بلندن.
- طيب مش هتنامي معايا؟

ضحكت بحب وافر.. لم أنس الكلام القليل والعيون تقول ذات الصدور، وظلت أوليا بخيالي الضحكة الناضجة الدهاء الأنثوي. السحر العاطفي الدافئ.

سعد يرقد في المستشفى .. فيروس في المعدة ويحتاج لأسبوع من العلاج والنقاهة. تكلفة العلاج ثلاثة آلاف جيرفن. بمرة كنا نزور أصدقاء توانسة له في بيتهم، واستهزأ أحدهم بي: أنت مصري.. أنا لا أحب المصريين.. خاصة المغتربين أمثالك.. سعد تعارك معه وبتر الصداقة بينهم وقال لي بعدها: هو مُختل كما قلت.. عنصري حتى النخاع.

جلست بجواره على الفراش.. ضعيف الوجه.. هزيل الملامح.

- أنا راجع إلى الجزائر.. كفاية أحلام.. تعبت من الحياة.
- لا أنت هتتعالج وهتسافر فرنسا كما خططت.
- لا أملك النقود والحل أني أرجع للوطن.

لم أفكر كثيرًا ودفعت تكاليف العلاج. عمل عملية غسيل المعدة ورقد أسبوعًا في المستشفى للنقاهة.. ولم يصدق ما فعلت.

- أنت مجنون يا مصري.. تضيع مستقبلك علشاني.. أنا ضايع ضايع.. ليه عملت كده؟
- كنت لازم أعمل كده.. مقدرش أسيبك تموت واتفرج عليك.. المهم الحمد لله على سلامتك.

حضنا بعضنا ودموع تنهمر منا.

- أول ما يبعتوا المال.. هسدد الدين لا تقلق.

- يا سيدي خلاص.. اخرج بالسلامة ويحلها ربنا.

بعد شهرين وصل أخوه إلى دينيبرو.. يعمل بمطعم شهير بفرنسا.. صافحني بريبة شك ونظرة فحص، وقال: برغم كرهي للمصريين إلا أني أشكرك بُحب على الموقف النبيل مع سعد.

بيده ظرف مُطبق: هذه هدية بسيطة مني لك.

- أنا آسف لا أقبل هدايا.. أشكرك (خرجت بتلقائية) أنا عملت العادي اللي بيتعمل في ظرف طارئ.

حاول بكل شدة وأنا رفضت بكل كرامة.

شهور عدت وكان سعد قد رتب حاله للسفر إلى أخيه. ترقرقت دموعه وهو يودعني، وهمس لي مودعًا في المطار افتح دولاب حجرتك.. رجعت إلى المدينة الجامعية وفتحت الدولاب وفتحت ظرفًا أبيض وورقة مكتوبًا عليها:

صديقي المصري

لم أنسَ تضحيتك وسأحكي دومًا عنك وعن الصداقة الحقيقية بيننا.. أعلم أن كرامتك عزيزة عليك مثلنا.. ولذا سأرد لك الصاع صاعين..

تحياتي لك .. سعد

أمسكت الظرف وبداخله المال الذي يبلغ خمسة آلاف جيرفن!

في الحجرة المظلمة والشمعدان ذي الشموع الثلاث المتكاسلة المختصرة. لم أشعر بالوقت يمرق أو لم يمرق بحاضري إلا في زمن حكاية سالم الفيروزي مع الشخص الغريب المسمى بـ (هو).. يتحرك تقريبًا أو يتحرك بحدود بين مكانين؛ المكان الأول، على الأريكة الخشبية أمام النيل وما زالا يتحدثان، وفي المكان الآخر يحكي (هو) لسالم قصته بدينبرو، فالوقت متوقف تقريبًا معهما أما زمن الحكي في دينيبرو فأجده متلاحقًا لا يتوقف بل ويقفز بين الشخوص.

هاتفني أناتولي والد ميشا:

- أنا أعزمك يا مصري عندنا في البيت تعال.

- سأرتب أموري غدًا.

- لا تقلق.. سآتي بسيارتي.

الرجل الأبيض.. أصلع الرأس.. يحبل كرشًا من النبيذ والطعام. لم تفتني الفرصة.. وقعت على أجازة طبية نفسية. مسموح بها للطلبة. خاصة المغتربين، ويصرف لك أدوية وأجازات. صافحني بقوته المعهودة ونصف حضن كعادتهم وعانقتني زوجته بحب، وقضينا ليلة في شتاء دينيبرو الثلجي والمدفأة أزرت بحرارتها الحوار الممتد بلا نهاية.. ميشا قليل الشرب مثل والدته.. حذرتني زوجته قائلة: لا تجاريه في الشرب يا مصري..

- أعلم يا سيدتي..

- دعيه يشرب معي.. المصريون يشربون ولا يسكرون بسهولة كأهل الشمال.

سهرنا بحجرته الملحقة بالبيت نشرب ونضحك.

- أنت عارف يا مصري أن الهرم عظيم.. في جماعات عندنا تذهب لكم لتصعد عليه لترى الكون منه.. كم مرة صعدته؟
- لم أصعده أبدًا !
- لم تصعده ؟! .. كل أصدقائي صعدوا الهرم.
- كيف صعدوا ؟!
- غريبة.. المصريين يبنون ولا يصعدون؟ لم يروا الحقيقة.. أنت تهزر صح ؟!
- أقول الحق.. لم أصعده أبدًا، وللصعود يلزم تصاريح وإجراءات روتينية تنتهي بك بعدم الصعود.
- لماذا لا تشرب سجائر بوفرة يا مصري؟
- أحاول التقليل منها.
- أخائف؟

سكت.. فقال: يعني لأجل المرض؟. الكانسر.. هراء علمي.. شركات الأدوية تتكاتف مع شركات التبغ.

- كيف ذلك؟
- إن مُنع التبغ.. لن تُباع الأدوية.. في نخب الرأسمالية القذرة (جرع كأسه بنهم).
- وهل كل المدخنين يصابون بالسرطان؟

- ممكن أن تؤدي له.
- كم النسبة؟ نحن نُولد بالسرطان، وهو داخل خلايانا.. لا داعي للخوف والخجل والنتيجة واحدة.. المرض مثله مثل الله لا يظهر إلا عند الموت.. إن كان موجودًا.

سكت ولم أجد ما أقول.

- أول مرة أقابل مسلمًا وأسهر وأشرب معه.. عربي، يؤمن بالله.. ماذا تحتاج وتريد منه.. في المرض تذهب إلى الطبيب، والمال تبذره بيدك لتعيش.. تتزوج وتنجب وتذهب إلى الكنيسة وتدفع الضرائب للحكومة، والبشر آلهة الأرض في كل الأزمان، وحتى الفلاحين في كل قداس لا يصلون إلى الله بقدر منفعة نفوسهم.. مجرد مراسم وحركة شفاه وهدهدة ألسنة وترانيم لا معنى لها.

* * *

كوكايين.. ويسكي.. كمان

الحفلة صاخبة في الهوس بارتي.. أصبع من الكوكايين.. أكسره.. أفتته.. أصنع عشرة خطوط.. تكفيني أربعة.. وبعدها تتوالى كؤوس الويسكي بلا عدد.. عيني تتذبذب.. الرؤية كصورة فيلم عتيق بخيوط رأسية تأتي وتختفي.. أدفع باب الخروج لأجد جينا عازف الكمان في ذات المكان على الرصيف يعزف وتحت قدمه زجاجة ويسكي.. جينا

أحسن عازف كمان بدينيبرو مقابل حفنة من النقود ترمى له.. الموهبة لعنة تصيب صاحبها بالفقر، والشارع الملاذ الطبيعي لكل موهوب.. يتوقف عن العزف ويصب لنا كأسين.. ونتكلم برغم لغته السوقية المحلية.. نتكلم كأصدقاء تربينا سويًا..

بدأت تباشير الليل تنبلج مع رماد السماء على صفحة النيل الرائق، و(هو) يزدرد قائلًا لي:

- رويت لك حكايتي.. وأنت دونت.. أتخرج إلى النور؟
- حكايتك طابقت فكرتي.
- كيف؟
- أعطتني فكرة رسمت أحداثًا لحياتي.

أشار (هو) بالسبابة والتفت إليّ:

- والأفضل ألا نتقابل مرة أخرى وأن تنساني بعد ذلك كأني لم أكن.
- لكن أنت صاحب الفكرة!
- تذكر جيدًا.. خالق الفكرة يموت، أما الفكرة جنين في بطن الأرض وحيدة بائدة.. تحتاج إلى من يحفر وينبش الهالة بيديه فيؤمن بها، ومن آخر الأرض يأتي آخرون ليؤمنوا بالصانع والذي آمن بالفكرة، والهالة تدور وتتواتر وتنحل إلى أبعاد وأزمنة تتبدد ويموت الصانع، فيحمل مريدوه الفكرة لكي لا تموت،

فيتحول المريدون إلى صُنَّاع وينكرون على الصانع البداية. لذا تتحول الفكرة (المخلوق) إلى خالق.

- تقصد أن الفكرة هي الأصل.
- لا توارب في المصطلح.. الفكرة هي الرب.. وكل فكرة تؤثر تتحول إلى رب.. في البدء كانت مجردة مخلوقة ساكنة بلا نبض. وعند نزول الإنسان بدأ في إحيائها.. متخيلًا أنه يبدع ويخلق شيئًا جديدًا من العدم، وهي موجودة مخلوقة مثله تعيش معه قبل خلقه.
- يعني هي مخلوقه أم خالق؟
- هي مخلوقة في الأصل والإنسان خلقها، فأصبحت خالقًا.. والفكرة مع النشوء الأرضي تفتتت في توازي انفجار الكون الأعظم، تفتتت إلى أفكار تراكمت كالخلايا، لتخلق الجسد، وصاحب الجسد الأزلي حل أغلال العقل لغرض أزلي في بداية الحكاية، وقيد مقدمة الحكاية وشطبها لنكتبها من جديد.
- تقصد أن..
- أقصد أنك الآن تتحول من مخلوق إلى خالق.

قصة الشجرة وآدم وحواء تجردت من الحقيقة، فتواترت على خطأ من فم إلى فم ومن لسان إلى آخر وإليك الأصل: آدم هو شهريار وحواء هي شهرزاد والشجرة هي نهاية الحكاية. فجهاد آدم الوصول إلى النهاية وكفاح شهرزاد إدخاله في حكاية أخرى وإلهاؤه عن الشجرة.. وبعد انتهاء كل

الحكايات انتهز شهريار خواء النهاية وقطف البرتقالة من الشجرة.. فصنع نهاية عمياء للبشرية.

نالني النعاس والغفوة على المقعد الوثير في الحجرة. وشمس الظهيرة تتسلل وتوقظني. ترنحت والدفتر مفتوح على المكتب. الشمعدان محتضر. ما زالت الكتب متناثرة على الأرضية والمكتبة تدور مع الحائط. كانت أكثر ترتيبًا في عمر مضى، وكنت وقتئذ تلميذًا يتهجى الإنجليزية بصعوبة وعمي سالم يصحح التلاوة، وبعدها يأتي والدي بعد انتهاء الدرس.. يثرثران عن مصيري وعن مصيره، وفي النهاية عند عتبة الباب أقف بقامتي القليلة وأبي يقول له: أمتى يا سالم ترسى على بر؟

- ربنا يسهل.
- كفاية سفر ودوران
- ربنا يسهل

دخلت إلى الحمام.. اغتسلت ودلفت بهدوء إلى حجرة النوم، وناديت عليه بهمس. تقلب وأفرج عينيه وقال: خالد.. ازيك؟

- أنا بخير.

أغمض للحظات. تفطر معايا؟ هز رأسه موافقًا، ومال على جانبه ساحبًا الغطاء بين ركبتيه. دخلت إلى المطبخ، قليت بيضات على الطاسة وأخرجت علبة الجبن والشاي يغلي على البراد مع اللبن

الساخن على المائدة ناديت عليه. خرج واضعًا فوطة على رأسه يفركها ويضعها على ظهر الكرسي.. جلس يأكل.. عيني تلاحقه.

- ازيك يا خالد وماما عامله ايه.
- الكل بخير بيسلموا عليك.. كده تقلقنا عليك.
- خير.. أنا الحمد لله.
- الجيران قلقوا عليك.
- ومن امتى الجيران بتقلق.. دي عالم بنت وسخة.

تعجبت من خروج السُبه منه.

- امبارح الناس تشكر اتصلوا عليا وأنت كنت مرمي على الأرض.

أومأ برأسه وأنهى الفطور.

- بتدخن يا خالد؟ .. شكلك آه.. أنت زي الشحط ما شاء اللهِ عليك.. وإن لم تدخن لازم تجرب.

أشعلنا سيجارة ما بعد الأكل المميزة، وأشرت عليه بعدم نسيان تناول الأدوية.

وأسئلة داخلي لم أشبع منها بعد.

- طعم السيجارة متغير شويه؟

سحبت شهيقًا: لا أبدًا.. يمكن العلبة مفتوحة من فترة.

- لا أنا شاريها امبارح.. حاسس بطعم متغير (قالها بجدية)

أخرجت علبتي.. جرب سيجارة.

أشعلها: أحسن كتير (وأطفأ الأولى)

الوجه البيضاوي والشعر الناعم الكثيف والعين الدقيقة والعوينة ذات الإطار البيضاوي.

- بتشتغل؟
- أنا في تدريب في شركة محاسبة (وبادلته السؤال).
- أنا بلا عمل للأسف إلا من ترجمة بعض الكتب لدور النشر.
- حضرتك سافرت على كلام والدي الله يرحمه.
- كنت بحاول أسافر بأي شكل.. أنا مكاني بره ، واللي بره بيحاربك عشان ترجع هنا.

في طريق عودتي للبيت بدأت الحروف المقروءة أمس تتلاعب بمخيلتي.. لم أصارحه بقراءة أورقه.. ولم أجد فرصة سانحة تطفئ شغف فضولي لأسأله، وخوفًا من ردة الفعل إزاء ما فعلت.. وحتى وإن أبد الامتنان لن يشفع ذلك سطوي على قراءة أفكاره في ظل توقف صلة الود بيننا سنوات. لم أجد القدرة على مصارحته، والأسئلة الناطحة تطن باستمرار وتهرب من حافة فمي. كنت أود أن أقول:

والصدفة أجلستني على مكتب وفي حجرتك في الليل، وأنت ترقد على الفراش.. فقرأت بعض الأوراق داخل دفتر خواطرك، وأدخلني في واقع لا يخصني، ولحياة أشخاص تتقاطع مصائرها وتتشكل.

وصلت إلى المنزل وأمي تلاحقني بأسئلة وأنا علامة استفهام. أحضرت الشاي الساخن وداخله يعوم عود من النعناع البلدي الفواح. سألتها: ماذا تعرفي عن عمي؟

- عمك سالم كان مرتبطًا بأبيك الله يرحمه بعلاقة قوية. كان بيقلد أباك في كل حاجة.. في طريقة شرب السيجارة في طريقة لبس الهدوم، ولما فكر أبوك أن يسافر إلى الخليج، ولم يحالفه الحظ.. عمك قرر أن يحقق الفكرة ويسافر إلى أوروبا.. أبوك لما سمع منه فكرة السفر لأوروبا كان خائفًا عليه، لأنه هوائي والهوى ممكن يوصله على أي مكان خطأ، وعقل عملك كله فن.. يعني أوسخ من الهوى.. وطريق الفن والناس اللي بدأ يتعرف عليهم أصحاب مصالح.. أبوك كان يقولي: الفنان من دول مستعد يمشي ملط في الشارع ولا يهمه. أبوك قال: إن كلا الأمرين شر.. الأهون أنه يسافر ويبعد عن الجو القذر ده.. وسافر فعلًا وانقطعت الأخبار عنه، وأبوك توفى، ومن يومها لا أعرف عنه حاجة.

* * *

بعد نهاية حصة الكورس الممل تذكره فهاتفته. لم يرد الموبايل ولا هاتف البيت.. فقررت الذهاب له. بيتي في أول عباس العقاد وبيته في نهايته.. المسافة بسيطة.. وصلت إلى الشارع المتفرع ووجدت بواب البناية يضحك مع زميل يرتدي الجلباب الصعيدي. بعد السلام سألته فأجاب: موجود.. لا يخرج إلا ليلًا ويعود مع الفجر.. صعدت له

ووقفت فترة ليست بالقليلة.. فتح الباب وواربه ليتبين ملامحي وأدخلني على عجلة وهرولة هامسًا لي بعلامة الصمت.. أطفأ إضاءة الشقة وأمسك يدي يقودني إلى حجرة المكتب واستفهام يلاحقني. أجلسني منحنيًا تحت النافذة ونوافذ العمائر مضاءة حولنا.. انحنى معي وتسلل بين جدائل قماش الستائر للحظة يراقب وينحني: أحد يراقبني في العمارة المقابلة. حاولت النهوض فحاشني بقوة: بشويش بشويش. حاولت ببطء النظر إلى النوافذ المتعددة أمامنا والتي على مسافة أكثر من مئة متر، فلمحت شبحًا يتحرك في إضاءة هادئة، أنزلني بشدة: هتكشفنا كده. فزفر في ارتياح ساندًا ظهره على الحائط: أخيرًا تأكدت من مغادرته للعمارة، وقف وأنار إضاءة الحجرة، فأشحت عيني والعرق يغمر جبهته برغم برودة الطقس: أنا مُرَاقَب يا خالد وهاتفي أيضًا. لذا لم أرد عليك.. لا أريد توريطك.

- الشرطة ؟
- شرطة إيه؟ .. دي حاجة أكبر من الشرطة نفسها.. معاك سجائر؟ أيوه.. حتى السجائر مش سايبني أعرف أشربها.. عرفوا تقريبًا الأماكن اللي باشتري منها.. فكرت أكلمك بس خفت من التليفون يكون مراقبًا.. أعمل حسابك تشتري لي من عندكم ومن حد تثق به.
- أنا لا أفهم شيئًا.

أشاح بوجهه ناحية النافذة، والوتر يهرش رأسي. قال:

- تعال ننزل نمشي شويه.

مشينا في الشارع الساكن بطبعه وإلى شارع آخر فرعنا طريقنا. كان يرتدي جينزًا وجاكتًا أسود ونظارة طبية. روحه المرحة غسلت توتري وخففت من حقيقة عمره، باستثناء بعض الخصل البيضاء المتناثرة على الفودين الظاهرة بين التفاتة له وضحكة ساخرة عالية يعقبها صمت بيِّن، ليبدأ زمن ملامحه خلال الصمت يظهر تدريجيًا، مشينا إلى قهوة دائم التردد عليها. له فنجان من القهوة وحجر من الشيشة ولي كوب من الشاي.

- إيه حكاية الناس اللي كانت بتراقبك أنا مش فاهم حاجة؟
- الناس في مصر بتحب تعرف عنك كل حاجة.. مدينة الألف أنف.. تدخل مرة من النافذة، ومرة من عقب الباب.. لا خصوصية لك في قاهرة الأنف.

ابتسمت من تعبيره.. أما لو عرف أمر إطلاعي على صفحاته: الناس اتعودت على الطبع ده.

- كنت بره مصر وشوفت حاجات بسيطة حابب تكون هنا، ولما رجعت ومشيت في الشوارع، لاقيت الناس بتخبط في بعض عادي.. تدهس جزمتك بلا أي احترام.. يطلب منك مقابل الخدمة بسوقية فظة.
- الطبيعي في البلد.. إيه الجديد.
- الجديد إني اتصدمت. كنت عايش أعمى، وشوفت النظافة والذوق والحرية.. الأعمى بين العميان كفيف أما الأعمى بين

المبصرين بصير. استهجنت على الرغم أني أؤمن بمبدئه: حاول تغير بإيدك.. الكلام مفيش أحسن منه.

- فيه ناس تريد لناس ألا ترى الحقيقة.. ده السينما عندهم ترمي القيم على الجمهور.. اتفرج على فيلم (إنقاذ الجندي رايان) لتفهم كيف يطوعون.. الإيمان والشجاعة.
- إمكانيات وميزانيات تدفع.
- لا أتحدث عن المادية.. أتحدث عن المصداقية في الورق المكتوب.. الكلام الحقيقي.. يظهر حقيقيًا.. عندما تشاهد فيلمًا مصريًا كلاسيكيًا ويسحبك معه وتقرأ في تتر نهايته أن القصة لنجيب محفوظ والقصة برغم أنها غير مقتبسة تحاكي العالمية ومحفوظ احترم عقلك في الحكى، لذا نجحت رواياته في الخارج.

* * *

أمل حُب حياتي.. أيام الجامعة كنا في مجموعة واحدة.. بعدها بسنة أصبحنا قلبًا واحدًا في المجموعة وفي السنة الثانية ارتبطنا بميثاق من العشق وفي عام التخرج عقدنا الخطبة.. دبلتان وزغرودة.. عامان على التخرج قضيتهما بين التدريب والكورسات. أمسك يديها وعيناي تسترق النظر إلى خصلات الشعر الناعم المستتر وراء الحجاب. في يوم قررت أن تخرج معي بلا حجاب. اعترضت بضيق مصطنع وخجل ظاهري زادها إغراء لم أتحمله من العيون حولي. فبحت لها: لن تخلعي الحجاب إلا في البيت. ضحكت في لوعة.. لها

ضحكة تشرح القلب.. حكيت لها عن تلك الليلة في بيت عمي. قالت:

- شهر عدى والآن تحكي لي؟
- ومن شهر عدى لم أهاتفه واطمئن عليه.. لم أجد المبرر لأحكي وقتها.
- يمكن يكون عملك هو سبب السفر إلى الخارج.. مين عارف؟

تبدلت ملامحها فجأة من الحنان إلى الدهاء.

- هو بلا عمل الآن.
- وما أدراك؟
- هو ذكر بلسانه أنه لا يعمل.. أما فكرة السفر.. كبري دماغك.
- - أكبَّر ؟!
- لا أفكر في السفر.
- لا تستبعدها..وإلا لن تتحرك خطوة إلى الأمام .. أنت عارف دماغ أبويا..

رن هاتفي .. مكتوب اسمه على الشاشة.

- ألو
- الحقني يا خالد (بلهجة مرتعشة)
- خير يا عمي؟

- لازم تيجي ضروري.
- حاضر.

أنهيت المكالمة والقلق ينضح من وجهي، أوصلت أمل إلى بيتها وهي تحاصرني بالأسئلة والشك. أنا لا أعرف. ركبت ميكروباصًا إلى آخر شارع عباس العقاد، وقطعت باقي المسافة على الأقدام. دقائق ووصلت إليه أعرج ناحية شارع فرعي. لأصل إلى العمارة أصعد في سرعة.. سمعت صوت مزلاج الباب.. وجدته يربط قماشة قطنية.

(فانلة داخلية) يكمم أنفه ويعقصها وراء رأسه، ويتحرك في كل أرجاء الشقة باحثًا ومقربًا أنفه من كل شيء تقريبًا.

نظر لي وقال وراسه يهتز في دهشة: صدق أو لا تصدق. وصلوا إلى داخل الشقة.

- مين اللي وصلوا؟
- المنظمة إياها.. شم كده يا خالد ودقق لو سمحت.

نظرت له مستفهمًا. فقال: رائحة الشقة.

وأشار إلى أسفل الكنبة. انحنيت بحذر. هناك ثقب في الحائط. أصبعي يقترب منه بقطر بوصة.. قلت له: فيه كهرباء واصله فيه؟ سلك مثلًا.

- كهرباء إيه يا خالد! بقولك رائحة.

أزحت الكنبة وسجدت على ركبتي وأنفي تتحسس كفأر، اقتربت أكثر ملاصقًا أنفي في الحائط كمسمار صلب. رائحة الغبار. ينظر لي ويقول: حد شافك وأنت طالع؟

وقفت على حيلي ثم قلت: وأنا بقرب من العمارة دايمًا عيني تخبط على البرنده المجاورة لبرندتك.. لمحت أحدًا بها.

ركض إلى البرندة .. فتحها ومد جسده وجذعه إلى الخارج، وعاد إليَّ قائلًا النور مطفئ عندهم.. خلاص أنت تؤكد ما أشك فيه.

- وهو إيه؟
- الشقة المجاورة تتبعهم.
- تتبع من؟
- دي حكاية كبيرة.. هو بعد ما لمح أنك طالع.. سحب أنبوبة الرائحة من الحائط.
- رائحة الغاز؟
- غاز إيه يا خالد.. دي رائحة قريبة من ريحة الماريجوانا.. خليط كده.. استنشقته كتير بره مصر (سكت وفك عقدة القماشة) يا ولاد الكلب.. لازم أبلغ الشرطة.. بس هقولهم إيه..؟
- أنا قلقان بجد من اللي بيحصل يا عمي.. براحة كده.. واعتبرني الشرطة.. مين هما اللي بتحكي عليهم؟

تحرك إلى المطبخ وأخرج زجاجة بيرة: بتشرب؟

- مش هقول لا.

صب الكوبين وقال: في أوروبا المخدرات تجارة. مصدر مال.. الكل يربح.. الحكومة بالضريبة.. التاجر بالعمولة.. الموزع ب الإنتاج.. المستهلك بالإدمان.. سلسلة مربوطة ببعض.. وتحت عين الشرطة ومتراقبة (أشعل سيجارة).

اتعرفت على أشخاص تبيع الماريجوانا.. أشتري وأبيع.. كنت مقربًا من الطلاب العرب في دينيبرو.. عبد الرحمن.. فلسطيني.. علمني طريقة لزيادة الربح ثلاثة أمثال.. تخلط الماريجوانا بالشاي الأخضر، والرهان على ضعف خبرة العرب في التعاطي.

- أنت بتبيع في مصر ؟ (قلتها في شك)

ضحك ملأ شدقيه وهو يصب كأس آخر:

- ده أيام الشباب.. الآن عمك اعتزل الدنيا كلها.. اشرب بجرعات ضئيلة جدًا وبقالي فترة شبه صائم عن الشرب.
- عايز تقول أن الشقة المجاورة لها علاقة بالأمر؟
- ده مؤكد.
- والحوار اللي عملته بقاله فترة طويلة؟
- يااااااااااا.. من سنين طويلة.
- وإيه اللي فكرهم بيك.
- مش عارف.. بجد مش عارف يا خالد.. بيحاولوا يرجعوني أدمن تاني بأي طريقة.

- أنت عملت مشاكل معاهم؟
- المشكلة أنهم لا يتركون أحدًا في حاله إلا ويكون معاهم.
- اشتغلت في مصر معاهم؟
- مصر! .. لا أكيد.. كل الكلام ده كان بره ومن زمن بعيد أوي.. أيام الشباب.

تفاصيل ما يتلوه الآن يختلط بما قرأت في أوراقه.

- وانت حياتك إيه حالها؟ (أشعل سيجارة أخرى).
- أنا كويس.. المهم أنت ناوي تعمل إيه؟
- لازم أتأكد كويس من الشكوك وبعد كده نشوف هنعمل إيه.. وخطيبتك عامله إيه؟

حكيت له عن أمل والخطوبة والهموم تعصرني.. سهرت معه إلى الفجر.. وأصر أن أنام في بيتي.

يبقى السؤال بداخلي في تلك الليلة.. الدفتر الموجود في الدرج العريض.. في غرفة المكتب.. أكانت قصة حياته أم قصة حياة (هو)؟ والحواشي والمسودات المكتوبة بين الفصول إلى أين كانت تؤدي؟

أأكون الآن مجرد شخصية وهمية في رواية؟

الآن أمسك القلم وأكتب: أنا خالد الفيروزي. شخصية في رواية.. والوحي الرئيسي هو العم سالم الفيروزي.. الآن تتبدل الأدوار من القارئ إلى الكاتب ومن المخلوق إلى الخالق.

لنرى الحكاية تبدأ..

- الحقني يا خالد.. تعالى فورًا..

أيقظني من كابوس.. لم أتذكر منه إلا كلمتين.. المخلوق.. الخالق.. وما زلت مشوش الذهن.

- حاضر.. ألبس ومسافة الطريق.

اشتريت في طريقي بسكويت من بلح العجوة، وأمام العمارة وجدت البواب يصافحني، فنظرت له بريبة، فقال لي: عمك سالم عمل خناقة امبارح مع جاره.. أستاذ عاطف.. والجيران كلها صحيت ساعة الفجر بسببه وكان عايز يدخل شقته بأي طريقة.. وقال عن أستاذ عاطف إنه .. جاسوس.. ومدفوع له فلوس.. ولولا الجيران هدت الجو.. كان تطور الأمر إلى محاضر في الأقسام.

البواب لا يفهم أصل الحكاية ولم أجد ما أقول.

- أعصاب عمك تعبانه.. خليك جنبه يا ......
- خالد.
- يا أستاذ خالد.

أومأت له، وصعدت، وفتح لي الباب على الفور، فطوقني بين ذراعيه، وصوته يختلج: مش قادر أعيش في الشقة يا خالد (رأسه على كتفي ومعصمه يضغط).

- امبارح.. اللي اسمه عاطف.. اتحجج وقال لي: عايز أدخل عندك وأشوف مواسير الميه.. نحتاج لتغيير مواسير العمارة.. تركته يدخل ثم نصبت له الطعم، وأمسكته يخفي أجهزة تنصت في جيبه.
- أنت متأكد ؟!

أمسك منكبي وقال: لحظة واحدة.

تركني ودلف إلى الحمام وخرج ومعه كوب من الماء وضعه على الطاولة.

- اشرب.

نظرت بريبة وخيوط العرق تفصدت من إبطي. قربت الكوب من أنفي. لا رائحة.. نظرت له.

- تذوق يا خالد.. متخافش..

قربت الكوب من فمي وشربت.

قال: الطعم متغير؟ .. مش كده؟

جرعة أخرى. طعم الكلور المعتاد.

- ممكن يكون نسبة الكلور زيادة شويه.
- أنا قلت زيك كده وسألت البواب من يومين قالي أنهم بيغسلوا الخزان.. أنا شاكك يكون فيه حاجة داخل الخزان.
- تقصد أنهم..

قاطعني: بالضبط كده.. هما عرفوا خلاص أننا نبلعب على المكشوف.

- لكن المفروض سكان العمارة يحسوا إن في الميه حاجة.. زي ما أنت بتقول.. حاول تتأكد من حد؟
- الناس هنا يا خالد بتشرب وتاكل في تلوث.. حد يدري بشيء..

النظرية تبدأ من بداية التكوين ثم يتكرر المشهد من جديد، وفي كل مرة يقفز القرين بجانبي ويقول: أنت الخالق.

كأن طفلًا يحاول التشبث بأي طوق نجاة.. التردد الظاهر من عينيه والصدق في كل خلجة من ملامحه والحسرة بين كل قول وضحكة.

اقترحت عليه المكث في بيتي لا أحد غير أمي.. وشرحت لها ملخص ما حدث في مكالمة هامسة ونحن نجلس على القهوة.. رحبت بطيبة معهودة.. البيت مفتوح لعمك يا ابني في أي وقت.. أنهيت المكالمة.

- والدتك سيدة طيبة.. وياما كان أبوك بيدافع عني قصاد كل العيلة.. محدش كان بيفهمني زيهم.. أما عمتك فوزية.. أجارك الله.
- زيارتها بسيطة.
- لا أعرف عنها شيئًا من وقت الزواج والسفر إلى الخليج.

- هي تتصل في المناسبات.

كل ما أتذكره وأنا صغير أشاهد برنامج سينما الأطفال، وهي تجلس في أدب بحضرة أبي .. بعدها جلسنا على المائدة وقت الغذاء.. ضحكتها تماثل ضحكة عمي سالم. ذات النبرة والصوت.. أبي يُحضر ظرفًا بني اللون به شيء.. أظنه نقودًا.. عرفت بعد ذلك.. صوت الورق المقوى (صوت الظرف) .. صوت جرس الباب.. أركض لأفتح.. رجل أصلع الرأس يقف ينتظر.. عمتي تودعنا.. أركض إلى النافذة.. تركب معه سيارة حمراء .. صوت أمي تقول : أنت تقرض المال وأنت تعلم أنها لن ترده!

- لا أقدر أن أتأخر عن حد.. دي اختي.

أتذكر جيدًا أمي وهي تقول:

مثالية الفيروزي.. سبحانك يا رب.. العرق يمد لسابع جد.

لم تأتِ بعدها عندنا وحدثتني أمي بعدم رد الدين كما توقعت.

كركر ماء الشيشة وبللت شفتي قائلًا:

- حجرة المكتب أصبحت مخزنًا للكتب.
- الحاجة الوحيدة الباقية في حياتي.
- ألم تحاول أن تكتب؟
- لا .. لم أجرب.. محاولات فاشلة.

أكمل: لم تحن بعد.. لحظة الكتابة. وأومأت موافقًا وعينه على شيء ما.. قال:

أحد يراقبنا.. لا تنظر للخلف حتى لا يلاحظ.. هو بلحية ناعمة ويقرأ جريدة.

توتر جسدي مع برودة الليل.. خبط على ركبتي بكفه قائلًا: بقولك إيه يالا بينا.

وقفنا وحاسب النادل.. وأثناء سيرنا بشارع عباس العقاد وقد هدأ الطريق.

- أنت لاحظت؟

بعين حائرة قلت: الرجل قارئ الجريدة؟

- لا.. مش ده.. الشاب النادل.. اقترب مني وبقبضة يديه زجاجة من العطر.. نفخ الرائحة .. إنها.. الرائحة اللي في الشقة.. محترف.. ومتخفي بإتقان.
- هذا الشاب أعرفه منذ فترة.. من سنوات.. شاب أمين.. وطول عمره لسانه حلو مع الزبائن.
- وأنا شككت في معاملته.. الشاب ممثل محترف فعلًا.
- ممثل ؟
- إيه اللي يؤكد لك دلوقت إن أنا عمك سالم الفيروزي.
- من ملامحك.. من صوتك.

- ممثل كومبارس متواضع ومعه ماكيير ممتاز.. جدير بخلق شخصية اسمها سالم الفيروزي يمشي الآن معك.
- سأحاول بقدر الإمكان التأكد منك لو حدث الشك.
- ومتى يحدث الشك؟ والحقيقة نسبية تتغير كوجه الإنسان.

فجأة سيارة مسرعة مرت جانبنا ودهست غطاء بالوعة مخدقة بالماء العطن لتحدث موجة من المياه تغرقنا وتتكرم على سالم بالنصيب الأكبر لأنه كان يسير ناحية الشارع. نظرنا لبعضنا حيارى. لا أجد ما أقول غير بعد ما أخرجت كيس من المناديل أمسح سرواله.

- ترى بعينك يا خالد.. كيف يوصلون الرسالة.. نحن نراقبك.. وفي كل مكان.

أثناء العطلات كان ميشا يسافر إلى أسرته ويتركني وحيدًا في الغرفة، المشكلة ليست في الوحدة.. المشكلة حدثت في ليلة.. والأصوات تتردد في أروقة الجامعة.. أصوات تتسلل بلغات مختلفة مختلطة.. استرق السمع من وراء الباب.. وأفتحه.. لا أحد إلا الليل والسقيع.. إن واربته أموت من البرد، وإن أغلقته تعود من جديد.. لا بديل.. أغلق الباب.. وأترك الأصوات تصدح إلى أن تنصرف أو أنام.

أمي تجهز طعام العشاء، ونحن نجلس في الصالة.. صورة والدي في إطار فضي اللون.. الله يرحمك يا أخويا.. تمتمت وراءه دعاء الرحمة. أنهينا الطعام. قالت أمي: ألم تنو الزواج يا سالم؟

- ربنا يكرم يا أم خالد.

- انوي انت بس.
- العمر سرقني.
- سلم أمرك لله.. نصيبك يصيبك.

وقامت تودعنا إلى مخدعها.. فدلفت تصلي العشاء كالعادة وتنام بعدها.

وجدته يحدق في سقف الصالة.. وقف تحت النجفة المعلقة في السقف ودار بجسده وأشار إلى ثقب بجانب الطارة الدائرية البيضاء المزركشة بنقوش على شكل وردة والمثبتة في قاعدة الثرية.

- انظر يا خالد.. أين وصلوا ؟

نظرت معه وقلت: النجفة معلقة من سنين والثقب من فترة كما هو لا تقلق.

- لا أقلق.. أنت لا تدري شيئًا يا خالد.
- الكهربائي أثناء تثبيت النجفة ثقب المكان بالخطأ.
- وتم استغلاله جيدًا والتحضير له قبل وصولنا وإمداد الثقب إلى الشقة اللي فوقنا بأجهزة تنصت.. أنت واثق من الجيران دول يا خالد؟
- مش معقول ده يحصل يا عمي.. أنا متربي مع أولاد جيرانا.
- المساكين.. لا علاقة لهم بالأمر وبسببي يتورطون بلا داعي.

أحضرت مقعدًا وصعدت عليه أتأمل صدى ما يقول.. مددت يدي .. أنا أعرف مقدار الثقب لأني حاولت أن أعالجه من سنين وتخاذلت عنه.. نزلت وقلت: لا شيء يُخيف.. لا تقلق.. كما هو.

- ومن براعتهم ألا تلاحظ أنت.

لماذا يبرر كل منطق؟ نطق السؤال داخلي.

- **لم ولن أشعر بالأمان.**

قبل الرحيل من دينيبرو بأيام.. تعاركت مع بائع الماركت.. لفظني بلاجئ.. صعلوك.. قال ميشا بعدها: الوضع طبيعي.. تتحدث الروسية.. تحصل على الجنسية.. دماؤك حارة.. بشرتك قامحة.

لم ولن تشعر بالأمان.

عيني ثقيلة.. أحد يتحرك في الحجرة.. رأسي حجر عتيق.. النافذة شبه مفتوحة وهواء بارد يتسرب وضباب وظل أحد الأشخاص.. إلينا ترقص وسالم يسند على إحدى ركبتيه طبلة بلدي ويطبل.. وأشخاص تراقبنا.. أريد النداء عليه وتنبيهه.. إلينا ترقص بخلاعة ومؤخرتها تتفكك وتتمايل.. مؤخرة أمل تظهر.. من أتى بها الآن وكيف ترتدي جيب قصير هكذا.. أين نحن، في حجرتي أم في حجرة المكتب؟

لم أتذكر باقي الحلم والفراش فارغ ومرتب.. أمي تجلس أمام التلفاز.. أين عمي؟ أستيقظ باكرًا وفطر ونزل يتمشى شويه.. دلوقت في عز الشمس.. أبدلت ملابسي وهاتفته.. أنا تحت العمارة انزل.

كان يرتدي نظارة شمس وبلوفر شميز وبنطلون جينز.

- بتشتري سجاير منين؟
- من كشك بجوار الجامع.
- هو بعيد؟
- لا قريب نتمشى حتى الشمس حلوة النهارده.
- معاك سجاير؟
- أخرجت علبة مارلبورو وسحب واحدة وقال: دي طعمها معقول عن علبتي.. جرب كده من علبتي..
- حاضر.. لا فرق في الطعم تقريبًا..
- لا يا خالد النهارده حاسس بتغير طعم علبتي.. نبدل العلب.
- عادي.. هي نفس الماركة.
- كنت أ عرف كشك سجاير في دينيبرو يبيع كل ما تتخيل.. سجاير عادية ومخلطة بمخدرات.. نتجمع ونشرب وأحيانًا تُطلبْ معايا لوحدي وبدأت أتعب شوية.. فرُحْت لدكتور في دينيبرو.. هناك بيعملك فحص شامل وأدوية ومتابعة ومراقبة.. معايا أدوية باخدها باستمرار لسيولة الدم والتنفس.. أدوية عادية زي أسبرين الصداع بتاع مصر.. اللي بتحبوا تتعاطوا منه في الشتاء..

اقترب منا رجل يحمل طفلة صغيرة ومعه سيدة متأنقة:

- كنيسة (.........) أروح لها ازاي؟

كنا نسير في شارع النزهة في منتصفه تقريبًا.. قلت:

- حضرتك تقصد الكنيسة الموجودة في أرض الجولف؟
- تمام.
- لازم تركب تاكسيا.. لا مواصلات لها.

شكرني بإطراء والطفلة تضحك لنا.

تلفت لي متابعًا الرجل وهو يبتعد: يسأل عن كنيسة؟

أنا أعيش هنا فترة طويلة ولأول مرة أسأل هذا السؤال.

- دي رسالة أخرى.. نحن نتبعك في كل مكان.
- وممكن تكون صدفة؟
- يمكن!

دخلنا إلى شارع فرعي على ناصيته أوتو بيجو.

- عشت فترة كبيرة في أوروبا؟
- معظم حياتي كانت هناك.
- وليه رجعت مصر؟
- لم يتبق معي نقود للاستمرار.

ظهرت ملامح كشك يقابله سور معسكر للجيش ولوحة معلقة (ممنوع الاقتراب والتصوير). سبقني سالم إليه.

سأله: عندك سجاير؟ (قالها وهو يتفحص الرف المجاور للشاب الواقف)

- أيوه يا أستاذ؟

سكت سالم لحظات والشاب يراقبه.. أيوه يا أستاذ أؤمر؟

- عندك مارلبورو؟
- أيوه (مد يديه في مكمن خفي تحت يديه وأحضر علبة)
- أنت جبت العلبة مين؟
- وأنت مالك يا أستاذ.
- في صف للعلب جنب أيديك .. العلبة دي من خرطوشة؟
- أومال من بيت أهلي!

تدخلت في سرعة: إيه يا رجب.. الراجل بيسأل.. حُرُم السؤال؟

اشترى سالم العلبة وفضها وناولني واحدة وقال: جرب كده؟

سحبت نفس: زي أي سيجارة

- هذا الشاب معهم.
- ده؟
- خد العلبة دي يا خالد.. علبتك تكفيني اليوم.
- أنا شاري علبتي منه!
- أنت كنت لوحدك.. أما أنا معك الآن.. ليَّ علبة مخصوصة.
- وما الهدف؟

- أن أعود للإدمان من جديد والعمل معهم.. دي شركات كبيرة أوي لا تترك أحدًا في حالة .. لو دخلت طريقهم لن تخرج منه.
- والشركة للدرجة دي مركزة معاك انت مخصوص !
- اسكت يا خالد.. انت طيب.. انظر إلى الأرض.. انظر.

أشار إلى علبة سجائر مطوية ومهروسة في الشارع فارغة.

قال بحذر متلفتًا حوله بريبة: واحدة.. واحدة.. وضع قدمك عليها.

نظرت له وفعلت كما قال:

- انحن وامسكها بهدوء.

فعلت كما أراد.. وأمسكت بالعلبة في يدي.. وبدأ يشم ورقة السلوفان.

- بها رائحة كما توقعت.. شم كده.
- لا شيء لا رائحة.. الشك غمرني..
- رائحة عطنة .. لا رائحة.
- دي إشارات ورموز لي.. نحن نتعبك ولن نتركك.

لا أدري فعلًا ما أقول له ونحن ننحني إلى شارع فرعي آخر.

- تعرف محل حلاقة كويس؟
- فيه حلاق.. خطوتين ونصل له.

- لو زحمة .. هنمشي .. لا أطيق الزحمة.
- طيب.

اقتربنا منه.. فتحت باب الدكان.. مروحة حائط تدور.. لا زبائن غيرنا.. صاحب الدكان يجلس على مكتب وجهاز موبايل مفكك أمامه.. خلع سالم الجاكت.. وضعته جانبي على الكنبة.. جلس على الكرسي أمام المرآة وتولى العامل بهمس السؤال عن طلبه. أمسكت مجله، وبداخلي استعداد لحدوث أي شيء.. سالم يشك الآن في كل شيء..

دخل زبون آخر وتولى عامل آخر العمل معه.. انظر لوجه سالم الوديع الساكن.. لا ردود أفعال له.. أقلب صفحات المجلة بلا هدي.. أنهى العامل حلاقته.. ووقف سالم يخرج نقوده قائلًا: يا ريت لو فيه كارت للمحل..

- آه طبعًا يا فندم.. شرفتنا (وأشار عليَّ) ده الأستاذ زبون دائم عندنا.

خرجنا وهو يزفر الهواء بقوة.. يستنشق الهواء بصعوبة ويخرجه بقوة.. كأن المحل بلا تهوية!

- أخذت بالك يا خالد..
- من إيه ؟
- الراجل اللي كان قاعد على الكرسي.. واللي ايه عامل نفسه بيصلح الموبايل.. ده بيرسل إشارات لهم.

حتى الحلاق معهم.. الموضوع مريب فعلًا.

- والراجل اللي دخل بعد كده.. كان واقف خارج المحل بيراقبنا ولما تأكد من جلوسي.. دخل المحل وبجانبي جلس وبقبضته أنبوبة خبأها تحت ملاية الحلاقة.. وبدأ من وقت للتاني يرش الرائحة.. مؤامرة مكتملة.

لم أنطق بشيء وهو يشعل سيجارة وأنا أراقبه.

- الحاجة الوحيدة اللي باقيه.. لو سافرت بره تعرف قيمتها (وحرك السيجارة بين أصابعه).
- إزاي ؟
- أسعار السجاير في أوروبا غالية جدًا وأغلب الأماكن صعب تشرب فيها غير مسموح بالتدخين.

قابلنا محل سوبر ماركت .. بضاعته هزيلة والرفوف فارغة على الدوام. صاحبته تُعامل الزبائن بجفاف وصلف دائم.. لذا لم أتعامل معه من زمن.

حاولت اللحاق به والكلمات تهرب مني.

- سلام عليكم.

نظرت له السيدة في ازدراء: وعليكم.

- فيه سجائر (وعينه على الرف الفارغ خلفها)
- أيوه.. نوعها إيه؟

نظر إلى الرف الفارغ.

- نوعها إيه يا أستاذ؟
- فين السجاير؟
- أنت عايز نوعها إيه؟ أنت مالك هي فين؟ (صوتها بدأ يعلو).

أمسكت معصمه وسحبته من المحل.. مشينا خطوات.

- تأكدت يا خالد.. سجائر مخصوصة لسالم الفيروزي.. تأكدت.
- ده محل كحيان.. هي دايمًا بتخبي السجاير علشان الضرائب
- لا أصدقك.
- لا بجد بكلمك.. مش تبرير.. بس محدش بيشتري من عندهم حاجة.. بضاعة قديمة ورديئة.. اسأل أمي..

هاتفه رن.. أنهى المكالمة ودخلنا إلى شارع النزهة من جديد.

- هروح مشوار وأرجع عليك.
- طيب.. إوعى تتأخر.. هنتعشى سوا؟
- أكيد.

وأشار إلى سيارة تاكسي.

اليقين لا يأتي من راحة القلب ولا من راحة الضمير، ولا من السعادة في الدنيا.. يأتي من الظن الملازم لك والحيرة المتواترة منك.

حكيت لوالدتي كل شيء بالتفاصيل، وهي تتمتم بين الفنية والأخرى. وبعدين. وبعدين.

- لا أعرف ماذا أفعل؟
- ده يا حبة عيني فيه حاجة في حياته تعباه.

سكتت وكأنها تذكرت: حتى يا خالد.. الصبح لما صحي من النوم وأنا بجهز الفطور، جلس قليلًا في الصالة ثم دخل الحمام مرتين بدون أن يوارب الباب.. تحققت منه عن شيء في نظافة الحمام. وجدت صنبوري الحوض والمغطس يعملان ووقف ينظر إليهما، وبيديه يغرف ويشرب الماء كأنه يتذوق.. نظر لي وقال: الميه طعمها غريب يا أم خالد! اقتربت وتذوقت.. لم أجد شيئًا. قلت: عايز تشرب.. تعال المطبخ فيه فلتر مياه.. دي مية خزان.. دخل إلى المطبخ وتحسس المياه ودعاني أجرب ولم أجد شيئًا.. فابتسم لي وصمت..

أكملت: ده يؤكد الشعور بالوهم والشك.

تذكرت مشهد محل الحلاقة وأنا جالس والجاكت بجانبي وتعمدي إبدال العلبتين لأرى هل سيشعر بفرق الطعم ونحن نسير لم يُبدِ أية ملاحظة عن الطعام ونحن نُدخن؟!

مقادير من الاحتمالات وأرادب من التوقعات ونقاط من الصدف تتقاطع.. القدر الإلهي.. من بداية النشوء الأرضي والافتراضات لا تنتهي والخريطة الإنسانية سجادة تتمدد على صفحة السماء منذ حدث انفجار الكون وشيئًا أخل بشفرة القدر. شيئًا يتطور.. يتكون.. يُمنطق ذاته. ذلك

الشيء أو المادة الهلامية مُزِجَت مع حزمة من النور، ونفخ بها الروح بأمره لتحيا من النور.

المادة الهلامية بدأت تتشكل داخله. تسأل عن السجود؟ والتسبيح وغاية خضوع الملائكة في مذلة؟

كان يُدرك (هو) أن المادة الهلامية جزء منه.. الصفة المائة. كان يدرك مدى سحر المادة، وجلب جبريل الطين وسوى (هو) المقدار مع المادة الهلامية ونفخ الروح به لتحيا وتنبض. وكان الإنسان نزل إلى الأرض ومن هنا بدأ القدر البشري يبني الأعمدة من السماء إلى الأرض. ويكتب بلسان الراوي العالم (الإله) كل شيء.. أنا سالم الفيروزي.. أجلس الآن وأقرأ ما كتبت بلسان الراوي العالم بكل شيء في دفتري وحكايتي لم تنته بعد.

الليل سكن بين السحاب.. نحبس بسيجارتين في برندة حجرتي، والبرودة مع زفير الدخان مع المعدة الشبعة.. راحة لا ينقصها حاجة.

- بيوت شباب الجامعة في دينيبرو مثل مساحة البرندة دي.
- معقول!
- حمام مشترك لحجرتين والشقة تقسم (نظر إلى الحجرة والصالة) لسبع غرف.
- في مصر ميزة على كده.
- الجزائري يقول إن الشقة عندهم بمساحة الفيلا عندنا.. ممكن تجري فيها (ابتسم)

- انت عشت في دينيب (لم أستطع إكمال الكلمة)؟
- دينيبرو .. حياتي كلها هناك.
- وليه رجعت على مصر؟ (كررت السؤال أكثر من مرة عليه.. لأني لم أجد إجابة شافية منه).

صمت ورمى سيجارته ودخان يخرج من منخاره: السؤال الأصح: ليه تركت القاهرة وسافرت؟ كنت مشروع كاتب. آخر شيء كان لقائي بالناقد الكبير والذي أثنى على أسلوبي ونصحني بالصبر والقراءة وتأجيل النشر.. كان بعدها قراري للسفر وإكمال دراستي في الخارج..

- خسارة أنك لم تحاول من جديد.

شرد للحظات وفز واقفًا ومعصماه على سور البلكونة، وسرح بعينيه في الشجرة الفارغة أمامنا.

- انظر يا خالد.
- إيه؟
- الكيس الأسود بين الأغصان.
- ماله؟
- شكله غريب.. متعلق هنا ليه؟
- انحنى بجسده وعيناه تحدق.
- الناس هنا تقذف أكياسًا.

- والصدفة أن الكيس يشبك في المكان ده بالذات أمامنا مباشرة.. ده مؤكد جهاز تنصت.. يا خالد عندك مقشة أو عصا طويلة نسحبه.
- عصا بالطول ده مستحيل.

في حجرة المكتب ومن خارج النافذة.. غصن يتهادى ساعة الغروب، ويختفي دقائق.

الفجر، بعدها لم أر الغصن، بعد هذا اليوم ومتى مر من زمن.. بينما كان القلم يسطر إذ مات الوحي.

كل ما أذكره.. موت الفكرة واختفاء الغصن.

هواجزي كالعجين أوشكت على الاختمار.

كنا نجلس في قهوة تحت بيتي في شارع فرعي، وكالعادة بدأ يرتاب في صاحب القهوة لأن التلفاز عالي الصوت وطلب تخفيضه ولم يستجب لطلبه إلا على استحياء.

- أهو صاحب القهوة ده.. أنت بتقول لي لواء جيش على المعاش.. ده أكيد تم تسريحه من الخدمة لدواعي أمنية.

الكل يتآمر عليه.. من بقى غيري لم يشك فيه !؟

- انظر إلى هذا العجوز.. يبحث عن أحد.

وقفت واتجهت ناحيته صافحته بحرارة.. الشعر الأبيض والعوينات الدقيقة..

- دكتور محمد المنسي.. دكتور نفسي (صافح سالما).. عمي أستاذ سالم الفيوزي..

جلس وناديت على النادل، ثم نظرت إلى سالم وقلت:

- دكتور محمد.. صديق مقرب لعائلة أمل خطيبتي.

قال سالم بارتياب: حتى انت يا خالد!

رتبت أمل مكالمة هاتفية مع محمد المنسي، وحكت له ما حدث بالتفاصيل. طلب أن يقابله. المؤكد سيرفض اقتراح الذهاب للعيادة. اقترحت أن نجلس معًا جلسة مبدئية.

- أنا أصدقك يا عمي لكن الكل يشك في الأمر.
- من الكل ؟ (قالها وأجفانه تُصفق)

تدخل العجوز في الوقت المناسب: اسمع منك يا أستاذ سالم.. اسمح لي يا خالد.

صمت سالم وبدأ مترددًا.

- أنا موجود لإنصافك.
- إنصافي مِنْ مَنْ؟
- من نفسك.
- لا سبب لك يدعو لإنصافي.. أنت عارف اللي حصل من خالد.
- وعايز أسمع منك .. إزاي ده حصل.

- وهو إيه اللي حصل.
- الناس اللي بتطاردك.. أنت كنت خارج مصر؟ بتعمل ايه بره مصر؟
- كنت في دراسة ورجعت تاني.
- وإيه اللي رجعك؟
- الفلوس.. الفلوس خلصت.
- بقالك فترة في مصر؟
- سنين.. وعايز أسافر لدينيبرو بأي شكل.
- يعني لو أنا وفرت لك الفلوس هتسافر؟
- بلا شك.
- ولو وصل ليك الناس اللي بتطاردك هنهاك؟
- وممكن لا يصلون.
- إزاي وأنت بتقول أنهم في كل مكان أنت فيه.. مؤكد هيجيبوك.

كانت عين العجوز لا تفارق إيماءات سالم.

- أستاذ سالم حضرتك كنت بتتعاطى مخدرات؟
- أنا مش مدمن يا دكتور.
- وأنا قلت أنك مدمن! بتتعاطى ماريجوانا من امتى؟
- أنا بطلتها من فترة.
- من امتى تقريبًا؟
- من فترة.. مش فاكر.. يمكن أكتر من سنة أو أقل.

- والحشيش والبانجو ؟
- الحشيش في المناسبات.

ابتسم العجوز قائلًا: ده الشعب كله بيشربه في المناسبات.. حتى خالد.. مش كده.

بدوري قلت: في المناسبات.

ضحكنا وسالم يقول: والدكتور مجربوش واللا إيه؟

- جربته في الشباب وأنا في عمر خالد على سبيل التجربة الأولى فقط.
- مسكين يا دكتور ومستحمل الدنيا إزاي (قالها سالم مشعلًا لسيجارة)
- زي كل الناس.

استأذن العجوز بلطف: عندي عيادة بكرة بدري ومعاد نومي بدأ.. أنا عجوز وأنتم شباب.

صافحه سالم جالسًا ووقفت أوصله إلى سيارته، ورجعت لسالم وكما توقعت قال:

- العجوز ده مجرد كومبارس في رواية رديئة.. بيحاول فيها الكاتب أن يشد انتباه القارئ.. خلاص .. أثَّروا عليك يا خالد وقدروا يقنعوك بأني مجنون.

صمتت ورأسي يطن.

لم أدرك أن القاهرة مدينة تبلع من علىها.. ستجد كل ما يلزمك للعيش.. كل ما عليك أن تتحول لذرة من تراب في بركة من الوحل وتمشي مع الخلق في الشوارع خطوة بخطوة ومع كل حركة تترك أثرًا.. من قبل كنت هنا.. أحد قد أتى من قبل أو كما يُقال أنك تُشبه جدك في شيء ما.. وفي ذكر الجد يُقال أن الفيروزي كان لا ينام الليل حتى يداوي آلام أهل القرية، وفي ليلة والليل كما لم يكن.. قبل صلاة الفجر وفي حدود قريتنا شلال من النيل الدافئ من الجبل العتيق.. توضأ وشرب شربة الجوف العلق، ونادى للصلاة بهمسات ذبذبت القلوب، وداعبت الآذان فقام أهل القرية بوعي حالم محبور، وبعد الصلاة انسدل كأريج روح هائمة وزعابيب الرياح تؤشر على عاصفة قادمة وصنابير السماء تنضح بالفيض والسيل العاتي والقرية تبحث عنه..

بعد ليلة ساهدة من الأرق واليقظة، وبعد أن وضعني سالم على لائحة المشكوك بأمرهم، إلى رفضه القاطع في المبيت. كما تحسبت، وفضل العودة لشقته، وما تمنيت شروق الشمس بقدر هذا الصباح وبعيني الناعسة أتحدث مع دكتور منسي على الهاتف.. عمك عنده مرض عقلي ويحتاج للعلاج في أسرع وقت ممكن ويحتاج إلى حجرة في مستشفى فأن حالته تتطور ويحتاج إلى عناية طبية، وقد أدى وقف تعاطي الماريجوانا والحشيش تمامًا (مرة واحدة) إلى ظهور حالة من الهلاوس على الحواس.. ودي أعراض محتملة.. أعراض جانبية متوقعة من التوقف مرة واحدة على التعاطي لذا بنحذر أن استخدام التدرج

في التعاطي أنسب وسيلة للعلاج، بالإضافة إلى حالة الارتباط العاطفي والأسري والوحدة والتي أدت لحالة من الاكتئاب. تفتكر هيوافق يا دكتور أنه يتعالج في مصحة؟ لا حل له.. لازم يتعالج.. تركه في الحالة دي يزيد من حالته سوءً.

في بطن الجبل.. رقد الفيروزي.. ومد النيل يعلو مع رخ المطر بلا نهاية. القرية تبتهل لعودته.. ماذا يفعل مع الله وهي إرادته؟ وقت الفيضان تندر السيول.. الآن السماء تغرقنا والنيل يمنح الهبة من العطايا.. الابتهال ما يتبقى والوجود قطعة من الفضاء السرمدي.. أتحسس مرقدي من بطن الجبل.. الصخور مُرطبة.. العاصفة تعوي.. أرقد.. ابتهل. أتيمم.. أتلمس الجلاميد بيدي وقدمي تدمي.. أتحسس الطريق.. الله طريق.. الله طريق.. الحصى نخل.. قدمي تدمي.. الأمطار تتسلل من فوهة الجبل.. قطرات تتزاحم.. تتغلل في النتوء.. المياه تخلق الطريق إلى الله.. الله طريق.. الله طريق.. قدمي تدمي.. لا أرى.. أسمع نواح الرياح وقطرات الماء وقطرات الماء تخدق ركبتي.. أصعد كالأعمى إلى أعلى بساط الريح.. أجدادي حضروا كما تُحضر الجان. أحتاج إلى بساط الماء. الماء ينساب، وشيء كالضياء الخافت يخبو.. الكهف مظلم.. الماء العطن يغرقني.. الضياء يخفت ويخبو.. أهو الله على بساط الماء.. أبتلع الماء العطن يغرقني. الصخرة في نهاية الكهف. نقطة تنبض. ذرة نهاية الكهف. نقطة تنبض. ذرة خافتة. اقترب وأسبح بكل روحي وأمد معصمي ليطفو معصمي ليطفو جذعي.. أمد كفي.. أمد أصابعي وألمس الحبة

المضيئة، لينتفض كل عودي. قلبي توقف.. عيني سكنت. أذني صمتت.. صوت المطر سكت.. الله طريق.. الله طريق.. قلبي تحرك.. عيني زاغت.. أنفاسي هدأت وعاد المطر يغدق بضراوة.. لون الصخرة تكثف كحبيبات من النمل تتجمع في نقاط وضع يدي وقدمي ورأسي.. وصعدت فوقها استرد قوتي.. لتتحرك كبساط الماء.. تتحرك كأنها روح مني وهدي من عقلي.. خرجت من الكهف وانزلقت كحوت غاضب على الوادي إلى القرية.. والماء قد زاد منسوبه حد الغرق.. اليابسة على بُعد.. أنقذ أجساد ما أجد فوق الصخرة.. والصخرة تتلون بروح من يصعد فوقها.. الأرواح تتصافى وتختلط.. وبعد انتهاء المعجزة.. تحاكى أهل القرية عن صخرة الفيروزي.

كنت في طريقي إليه.. ركبت ميكروباصًا من أول عباس.. ماذا أقول له. أنت مريض وتحتاج إلى الدخول إلى مصحة! هو إنسان مثقف أيستوعب ظروف مرضه؟ يستوعب؟ يستوعب ماذا! هو يشك في طوب الأرض. لن يصدقني، وبالتالي سيبدأ بسرد مؤامرة جديدة أدبرها له لإدخاله المصحة. من أي مدخل أقنعه؟ وبعد إقناعه ما الوضع بعد ذلك، وهل يعود عمي سالمًا كما كان؟ هو طبيعي في كل شيء إلا في أمر من يطارده.

اتصلت أمس به وقد مرت أيام من آخر لقاء معًا، وخلال تلك الأيام لم تطاوعني نفسي في الذهاب إليه والبوح له عن حقيقة مرضه إلا بعد عناء من التفكير، وأن أقصر طرق العلاج معرفة المريض

بمرضه، وربما محاولة إثباتي له أني أبدلت علبة سجائره في محل الحلاقة، وأن طعم المياه متجانس في مدينة نصر، وأن الكيس الأسود في الشجرة به بقايا طعام أيصدقني؟

وصلت إلى آخر الشارع على قدمي كالعادة، والعمارة تقترب أشعلت سيجارة، وخطواتي تتثاقل كلما اقتربت، وجدت بواب العمارة يجلس ويدخن بدوره ويتفحص ملامحي. وقف وقال:

- أستاذ خالد.

التفت له

- عمك سالم ترك المفتاح لك.
- هو مش فوق؟
- من بدري خرج ومعه شنطة يد.
- هو فين؟
- لا أعرف.. عمك كلامه قليل.. وقال لي لما ييجي يطلع ضروري إلى الشقة.

شكرته وهممت بالصعود ثم طرأ خاطر

- أنت شغال يا عم..
- عم محمود.
- بقالك فترة في العمارة؟
- الحمد لله.. سنين..
- عمي كان متواجدًا خلال الفترة دي؟

- طبعًا.. عمك على قدر كلامه القليل إلا أن معاملته ما شاء الله كويسة معايا خلال آخر سنيتين معاملته اتغيرت شويه.
- إزاي؟

بيتخانق كتير (وسكت ثم قال) أول إمبارح نادى عليَّ بصوت عالٍ وقال لي أن المية مقطوعة عنده في البيت.. دخلت الحمام عنده لاقيت الميه شغالة.. قال إن الميه بتقطع وتيجي.. عايز أطلع أشوف خزان الميه.. الخزان أعلى نقطة في العمارة والوحيد اللي بيطلع على السلم الضيق السباك.. هو صمم يطلع بأية طريقة وطلع وشافه وقال أنه محتاج صيانة ونظافة وأخذ رقم تليفون السباك.. فاستغربت أنه عمل كده.

- ليه استغربت؟
- عمك في حاله دايمًا وعمره ما سأل في أي حاجة متعلقة بالعمارة ولا حضر أي جلسة من جلسات مجلس إدارة العمارة.. وفي الآخر استفسر مني عن مواعيد غلق باب الحديد.

صمت وقال: عمك محتاجلك يا أستاذ خالد.. هو وحداني وأنت بمقام ابنه برضه.

حركت رأسي مؤكدًا معه ما قال وصعدت إلى الشقة.. فتحت الباب.. وجدت مقعدًا أمامي وعليه الدفتر الأسود وورقة.. أمسكت

الدفتر الذي سهرت عليه تلك وسحبني داخله وأمسكت الورقة المكتوب بها:

ربما لو كان لي ابن لسميته خالد، وربما لو كان لي عقل لم يجنح عن الخيال، لكنت روائيًا معروفًا أعيش حياة مستقرة.. ربما حرف لا لزوم له الآن وروايتي أوشكت على النهاية.. تبقى صفحات قليلة ويسدل القارئ دفة الكتاب ليمارس حياته الخاصة كأني لم أكن إلا من بعض الحبر والحروف على السطور.. حياتي رواية أعيش داخلها ومنها أهرب من الواقع، والحياة سفينة كل راكب بها له سفينة كل راكب بها له قصة ومرسى ينتظره. لم أكن يومًا راكبًا يركض وراء رحلة، ينتظر أن يوصف بلقب أو كناية، كنت أود أن أكون الحياة. أصنع الواقع. أحرك السفينة وأغرقها. أقبض الروح وأسقعها.. أمسح السماء براحتي وأهدل وجنتي برغاوي السحاب.. أطفئ الشمس بنفخة وأنير القمر بنفخة.. أطيح بنفحة.. أطيح بالمجرات وأطوي الأبعاد.

من أجل طموحي المستحيل.. تجردت من الإنسانية وقررت التجسد بالواحد.. أن أكون ولا أكون بذات الزمان والمكان.. أن أخلق ذاتي.. أن أكتب عن الحدث وعن ما يحدث وعن ما سيحدث أن أدون الاحتمال وأفحص ذرات دواخله. أن أرى نتيجة ما حاولت خلقه عن نفسي وعن روايتي (دفتر التكوين). أنت قرأت المسودة من قبل في الدفتر الأسود وكانت مرحلة من التشظي والتجريب في خلط

المكونات الخلقية حتى صارت كالعجين اللدن اللزج داخل قالب من أتون الوجود والآن حانت لحظة الخلق، وصب المحتوى، وبداية التجربة. وأيًا كانت النتيجة سيبقى تأثيرها ينبض داخلي وداخلك. لذا أدعك إلى إتباع القواعد في رسالتي، لتفهم بعدها القواعد في رسالتي، لتفهم بعدها ما أقصد.

لتفتح الآن الدفتر الأسود والذي بين يديك وتطوي الرسالة، ولا تعود لها إلا بعد إتمام قراءة الدفتر بالكامل لذا قم بتنفيذ الأمر.

وجدت علامة السهم ومكتوب عليه بين قوسين (اقرأ الدفتر الآن). أمسكت الدفتر ووجدت أول صفحة وبالمنتصف مكتوب:

تمهيد

الصفحات والقطع المكتوبة بالخط الأسود بخط يد سالم الفيروزي.

قلبت الصفحة لأقرأ

الحياة والنهاية نقطتان. البريق والخبو.. البداية والنهاية لطرف الخيط. يظهر على السطح شخصان يلتحمان.. طرفا المعادلة يتكونان. أنا وهو، هو وأنا.

طويت الورقة. تذكرت أن صاحب السطور السابقة هو العم سالم الفيروزي آخر أعمام العائلة، وصاحب أكبر مكتبة عتيقة في حجرة

المكتب، والتي أسسها بيده من تصميم وتركيب، وانطبق ذلك على أثاث باقي الشقة البسيط، والتي كان يعيش بها وحيدًا.

لم أفهم ما حدث له إلا بعد استدعائي هاتفيًا من جيران شقته، بعد سماع صوت صراخه المتواصل، فهشموا مزلاج الباب، ليجدوه في حجرته منكمشًا على الأرضية كجنين على جانبه مرتجفًا، فتكرموا باستدعاء الطبيب، والاتصال على منزلي.. أنا خالد الفيروزي ابن أخيه الأكبر رحمه الله.. عند وصولي تكرم جار بتسليمي مفتاح البيت وروشتة الطبيب، فأحضرت الأدوية ومن الصيدلي عرفت أنها مهدئات وفيتامينات.

أشلاء الشقة متناثرة.. حاولت بقدر ترتيب السجاد المنتفض والمقاعد المتفرقة والأوراق المبعثرة في كل ركن والتي منها قرأت السطور الثلاثة وعيني من حين لآخر تُمطر الحجرة الثانية بآخر الرواق. حجرة المكتب، والتي بها تعلمت دروس اللغة الإنجليزية في المرحلة الإعدادية، وهو ضليع بشرح النص واستخراج منه كل ما يلزم. كان يمدني من القصص خلال الأجازة السنوية الصيفية، فلم أهتم بقراءتها، وحتى لم أفكر في إعادتها له، أنهيت ما استطعت عمله، وعيناي تُمطر حجرة المكتب.. أخرجت علبة السجائر. أشعلت واحدة أتلذذ بها.. انقطع التيار الكهربي.. اهتز قلبي من المفاجأة.. بحثت في جيبي عن المحمول.. النجدة الصوتية. الظلام قبضني.. التهوية رديئة أقصى الزاوية برندة.. فتحت الباب المعدني.. مقعد وحيد بها.. نسائم الشتاء تُجمد الأوصال.. الطابق الثالث ليس بالمرتفع.. البنايات المقابلة تجوس في

ظلام.. الشارع مقفر وبعض السيارات تقف مختبئة. فكرة النزول إلى الشارع مُخيفة الآن.. حي الزهور هادئ بطبعه.. أصوات نباح الكلاب عالقة في الصمت.. وقد فعلها كلب من قبل وخرج عن الصمت وركض ورائي في هذا الشارع. المنطقة لم تتغير معالمها كثيرًا..

تغيرت ملامح حجرة المكتب؟ كنت بها أمسك الكراسة. اقرأ. عمي يسمع.. نظارة القراءة على أنفة المعكوف. السيجارة تآكلت وبدني تجمد.. خرجت من البرندة.. وأغلقت الباب المنزلق المعدني. عيناي رويدًا ألفت العتمة ويداي تضيء بالمحمول طريقي.. الكابوس الآن ليس الظلام، بل في عودتي إلى حجرة النوم، وعلى ضوئه الشحيح لا أجد الجسد يرقد وقد اختفى.

حاولت ردع قلبي وقراءة المعوذتين.. جلست على مقعد أنترية.. مريح.. الحمام يواجهني وعلى يساري حجرة النوم وعلى يميني حائط يطوي خلفه رواقًا قصيرًا يؤدي إلى حجرة المكتب. هاتفت أمي طمأنتها على الوضع اقترحت عليَّ المبيت معه الليلة لحد الصباح، لترتيب الأحوال معه. أنهيت المكالمة والبطارية تئن من الضعف. مع استمرار الوقت لن تفلح في الصمود، المطبخ منزوي في الركن. اجتزت العتبة ويدي تتلمس زر الإضاءة. غبي. ذاكرة رديئة. فعل لا أدري. بحثت عن مشط كبريت، أكيد قريب من موقد البوتاجاز. ولاعة ذات الماسورة. كويس. أشعلت أكبر عين نار. أيوجد شمع؟ ضروري بكل بيت. يا للحظ.. وجدت شمعدان ذا ثلاثة أعمدة وكيسًا من الشمع داخله.. حملت الشمعدان. أسير بخطوات متمهلة عيني تُمطر باب

حجرة المكتب. اقتربت بحذر. الإضاءة تتراجع خلفي. الباب على بُعد ذراعين. أمسكت المقبض النحاسي الملتوي. المزلاج ثقيل الحركة. صوت الرفاص.. تيك.. تيك.. الباب ثق.

....

جلست أقرأ الرواية والتي حدثت بعين التفاصيل منذ ذهابي إليه وهو راقد على فراشه إلى لحظتي الآن وأنا أمسك الدفتر والتي تغيرت معالمه وتفاصيله بالكامل. مع المزج بين عالمه من بداية لقائه بـ (هو) إلى بداية ظهوري على المسرح معه، وقد كتب كل ما حدث لي كأنه يراني ويجلس معي.. سالم روى عن لساني فصول الرواية واحتفظ بلسانه في القطع المكتوبة بالخط الأسود بين الفصول، ليمزج رؤيته كما يكتب ورؤيتي كما رآها والسرد الآن متوقف في دفتره عند مشهد ذهولي.

السرد متوقف في دفتره عند مشهد ذهولي، وأقدر مدى الذهول الذي أصابك وأنت تنظر إلى الفصل ما قبل الأخير وتقرأ ذاتك.. وهي تقرأ الدفتر في الزمن المضارع الآن المستمر معك وبذات الوقت في الزمن الماضي المكتوب الآن أمامك.. أنت الآن تقف بين مرآتين لترى أبعاد صورتك تتعدد.. تحاول أن تحصي أعداد الصور المتراكمة بلا نهاية.. أنت في مكان داخل مكان ولو قمت بتصوير المشهد على شريط من الفيديو لاستطعت أن تلعب لعبة الزمن في التقديم

والتأخير. تستمتع بلعبة الزمن وبلعبة القدر.. هكذا حاولت في روايتي اللعب في البعد والزمن.. هل نجحت؟

لقد حان دورك يا خالد لتكتب مشهد النهاية الأخير من الرواية ومن هنا تبدأ رسالتي الثانية:

أن الأوان أن تعيش دور الخالق في رواية دفتر التكوين ويكون دوري الآن مجرد شخصية مخلوقة تعيسة مريضة على السطور وأنت وحدك قادر على قبض روحها وسرد نهايتها.

لذا لقد حجزت لك طائرة بعد غد إلى دينيبرو وفي العنوان المدون لديك.. تستطيع أن تجد ألينا لتعطي لك آخر شيء أملكه، وما تبقى لي اعتبرني الآن في عمر الباحثين عن التكوين بمفهوم البشر وعن الخلق بمفهوم الخالق.. أوصيك لا تبحث عني.

عمك سالم الفيروزي

بهت ورقدت وتجمدت وسكنت وعيني مُسلطة على نتيجة الحائط الورقية المرسوم عليها أهرام الجيزة. التاريخ: واحد يناير 1985، هو تاريخ ولادتي. ماذا يحدث؟ أشعر بحالة من الرعب الآن. دعتني أنتفض في كل ركن من الشقة باحثًا عنه.. هل هي دعابة جديدة؟ ومحاولة لإثبات حماقتي وبؤسي معه.. ماذا يريد أن يصل معي.. هل هو مريض أم يدعي الخبل والهبل.. ومن أين توقع كل ذلك ومتى كتبه؟ .. من المحتمل كان يراقبني.. لا أصدق كل ذلك، وكأني في

فيلم مستمر وكل المتفرجين في انتظر رد فعل وخطواتي.. على المائدة موبايل هاتفه تركه أيضًا.. أمسكته وجدت رقم هاتفي ورقم هاتف كرم جاد ولا أي شيء آخر!

صديقه كرم أتت سيرته في الكلام بمرة ولم يتحدث عنه بالقدر الكافي، طلبت الرقم:

- ألو.
- ألو.. إيه يا عم سالم.. إنت فين؟
- أنا خالد ابن أخيه.
- أزيك يا خالد.. ده عمك مش مبطل كلام عنك.
- هو عندك ؟
- لا.. من كذا يوم كنا مع بعض.. هو مش عندك؟
- أنا مش عارف أتصرف ازاي؟
- خير حصل حاجه.
- هو في حكم المختفي ومش عارف أعمل إيه.. لو حضرتك تقدر تيجي؟
- طبعًا أنت فين؟
- أنا في شقته.
- ساعة زمن وأكون عندك.

أمسكت هاتفي وطلبت أمي واختصرت بقدر ما حدث وسألتها عن كرم جاد.. ده صديق عمره من زمن يا خالد.. أبوك الله يرحمه كان معتبره زي سالم تمام.. إنسان أمين ومحترم. ثق فيه. أنهيت

المكالمة والدفتر أفر أوراقه.. قمت ودخلت حجرة المكتب وفتحت كل الأدراج باحثًا عن أية ورقة أو شيء يقرأ.. مجموعة من الدفاتر ذات اللون الأسود وصفحات بيضاء داخلها كما ولدت.. دخلت حجرة النوم فتحت الدولاب الملابس كما هي مرتبة. لم أترك درجًا إلا وفحصته حتى المطبخ والحمام والبلكونة، وقد أتى كرم.. فتحت له الباب.. يرتدي كوفية حمراء وجاكتًا بنيًا، ورائحة تبغ تنضح من كل خلية به.. أجلسته وشرحت له بالتفاصيل ما تم وحاولت قدر الإمكان ترتيب الأحداث كما كتبها سالم الفيروزي ولقاء الدكتور بعد ذلك.

- من زمن عملك عايش في وحدة منعزلة (كان بين أصابع كرم سيجارة لا تنطفئ أبدًا) وياما اتكلمنا مع بعض، ونصحته أن الوحدة بتقتل الواحد مع الوقت وأن الكتب لا تنتهي والكتابة دي حاجة من ضمن حاجات لو مطلوبة خير ولو حتى الواحد بعد عنها مش هتضر.. هو وصل لمرحلة يحب يسمع اللي يعجبه.. في فترة بعد عني وعن كل الشلة.. أنا أتبقيت منهم وحافظت على الصداقة وباسأل عنه لأنه طيب وقلبه أبيض، وعمره ما أذى حد ولا فكر يحقد على كائن.. وسنين بتعدي ونتقابل وهو زي ما هو سالم الفيروزي القديم.. السنة دي حسيت أنه تعبان شويه.. في حاجة بتوجعه ومش عايز يقول إيه هي؟ نصحته أن لو راح لدكتور يكشف عليه ويشوفه .. كان يقول لي البني آدم طبيب

نفسه. بس ميضرش تكشف يا سالم.. لم أجد ردًا أو اقتناعًا منه.. هو في فترة كان سافر فيها فعلًا لأوكرانيا وكان يحكي عن حد اسمه..

- إلينا
- أيوه.. البنت اللي اتعرف عليها زمان.
- يعني هي شخصية حقيقية يا عم كرم؟
- من كلامه يا خالد.. أظن.
- وممكن تكون خيالًا.. عمي سالم يتخيل أشخاصًا يكتب عنهم.

سكت الرجل.. احترمت صمت.

- أنت مش بتقول لي يا خالد أن الدفتر الأسود ده .. رواية كتب ف يها كل شيء عنه وعنك من ساعة ما تقابلتم.
- أيوه.
- وهو أضاف على الأحداث ذكريات من الماضي.
- اللي خايف منه يا عم كرم.. أثناء وهو بيحكي الرواية حكى عن حد قابله، شخص لم يسم له اسمًا ألا (هو).

فتحت له الدفتر وقرأت عليه من بداية مقابلته مع هو والذي جلس يحكي له حكايته في دينيبرو.

- لماذا لم يذكر اسمه أو أنها حكايته؟

- مش عارف يا خالد.. دي علامة استفهام.. المتاح لك الآن تذكرة السفر والطائرة .. جرب وسافر.. وإن لم تجد أحدًا على العنوان.. ستعود ولن تخسر شيئًا.. أين الرسالة؟

أعطيتها له وقرأها على مهل متمتمًا كل حرف بها.. أغلق عينيه وقال:

- هو يوصي أيضًا بعدم البحث عنه في آخر سطر.
- يعني لا نُبلغ السلطات لتبحث عنه؟
- دي وصيته.. والرسالة وصية واجب احترامها.
- لكن هو مريض يا عم كرم.
- وهو عارف أنه مريض.. ده كاتب رواية وتوقع كل حاجة قالها الدكتور لك!
- يعني هو ممكن يكون...
- وممكن يكون مريضًا.. يعني هو مثَّل على نفسه دور المريض عقليًا!؟
- أنا أشك في النقطة دي يا خالد.

أومأت له، وأمسكت بالموبايل وطلبت رقم دكتور محمد المنسي، وبعد المقدمات والتفاصيل المختصرة سألته:

- هل من الممكن أن المريض يكتب رواية؟

- المريض العقلي في الحالة العادية والغير مواظب على المجهود العقلي في التفكير.. مثل الكتابة. لن يستطيع.. ومع تناول الأدوية مُحال أن يقدر..

من الممكن أن يفعلها ولكن بنسبة قليلة جدًا 5% تقدر على ذلك ويمكن أقل من النسبة المذكورة كمان.. لو يتناول أدوية محال يكتب كلمة إلا لو امتنع عنها.. هو لم يتناول بعد الأدوية.. الذهن في مرضه بيكون دائمًا مشتتًا وصعب الإمساك بفكرة أو عبارة مفيدة.. حالات زي الأدباء والعلماء ممكنة.. نجيب سرور الشاعر كان في مستشفى وبيخبي البرشام عشان يعرف يكتب.. وفيه عالم رياضي معروف أخد نوبل.. قدر يرجع لشغله لما قدر يمتنع عن تناول الأدوية.. لكن في علم الطب والحالات دي.. صعب التكهن بأعراض الامتناع عن الأدوية.. أغلب الحالات تسوء وتعيش حياة من الخبل العقلي والعذاب النفسي المستمر.

شكرت الدكتور على استفاضته ونصحني بمحاولة البحث عنه جديًا لتناول العلاج لخصت لعم كرم الحوار فقال:

- يعني سالم ممكن وممكن.. الاحتمالان واردان.
- الدكتور يرجح احتمال أنه مريض وبيكتب.. لكن الدواء مهم له لأنه لا يتوقع إيه اللي ممكن يحصل لو ترك على هذه الحالة.
- استأذن كرم في الانصراف واطفأ سيجارته المشتعلة.
- أنا بشكرك جدً يا عم كرم.

- إيه ده بتقول إيه .. ده عملك أخويا وصاحبي وأنت بمقام ابني.. أبقا طمني بعد ما ترجع بإذن الله.

صافحته وخرج.

* * *

وصلت إلى مدينة دينيرو، ودرجة الحرارة تجاوزت الصفر بخمس درجات.. لكِ الجنة يا أمي: أبحث في دولاب عمك عن بالطو الشتاء.. لا أعرف كيف تذكرته وسالم يرتديه عند وصوله إلى المطار وعزوفه بعد ذلك عنه (كما قالت أمي). لا أعرف كيف تذكرت كل تلك التفاصيل، في حين أحيانًا تنسى براد الشاي على البوتاجاز!

اقتربت من سيارة أجرة وناولته الورقة قرأها وهز رأسه. قلت له:

- المسافة بعيدة ؟ كم الأجرة؟

نظر إليَّ باستغراب وحاجباه ارتفعا إلى حافة الأيس كاب وقال بإنجليزية: اركب أيها الشرقي.. لا تخف (وأشار إلى العداد الإلكتروني).

لكي أصف السماء والحقول ورذاذ المطر المتقطع. أحتاج لقلم عمي الآن ليساعدني في محاولة تقليده ومحاكاة أسلوبه في السرد، ولأني داخل روايته وفي فصله الأخير. أعيشه واقعيًا وأدونه بحسب ما تسعفني الذاكرة بعد ذلك.. سرحت في الطريق إلى أن بدأت السيارة تبطئ، وبيوت من الخشب تظهر في الأفق، وكما وصفها سالم من قبل توقفت السيارة وأشار إلى صف البيوت وقال:

- هنا ممكن تبحث عن عنوانك بسهولة.

دفعت الأجرة له وأعطى لي باقي الفلوس بالقرش كما كتب العداد، تلفت حولي وسرت خطوات وركزت على الرقم المدون على كل بيت.. اقتربت من الباب الخشبي. هذا هو. محفور عليه الصليب. ضغطت على الجرس، وداخلي شعور برهبة وترقب وتخبط وقشعريرة.. أحد يفتح الباب ويواربه. عين تظهر منه.. مددت يدي بالورقة المكتوب بها العنوان والمزيلة بتوقيع سالم الفيروزي.. اسمع لغة غريبة.. الروسية، وينفتح الباب على وجه سيدة، أظنها خادمة.. أدخل وأغلق الباب خلفي ورائحة طعام زكية.. تختفي في الداخل بدأب.. البيت يقترب من الموصوف في حفل رأس السنة في الرواية؛ له درج إلى أعلى .. سيدة تقترب بترقب وتنادي.. تبينت الكلمة: سالم.. سالم.

كانت تأتي من مدخل مظلم عن البهو. ووقفت تتفرس ملامحي. لم أتبين الوجه إلا وهي تتحرك وتقترب قائلة بإنجليزية: أنت ابنه؟

- أنا ابن أخيه.

شعر كستنائي قصير ووجه مشرئب حيوية وعين زرقاء تخفي طاقة من الجاذبية. مدت راحة يديها الدافئة على ذقني ماسحة جبهتي وعينها تتلألأ لتحتضنني وصوتا يرغي بروسية رقيقة جياشة، وأنا أقف حائرًا، ودموعها تنساب على كتفي. هي تضحك وتبكي في ذات اللحظة.. تحاول أن تتمالك أعصابها تأسفت وهي تقول بعربية رقيقة: حمد الله على السلامة.

أومأت برأسي: تتحدثي العربية؟

- بعض الكلمات.. الإنجليزية أفضل لنا وشوية أربي.

جلسنا ودفء المشاعر كنس تعب السفر، وأشارت إلى الخادمة، وحالة من التأثر تنضح منها وهي تكفكف عن دمعة هاربة منها.

- عمي سالم حكى عنك كتير.
- سالم حبيبي إلى الأبد.. حتى بعد زواجي من إليكسندر.. مكانه لم يفارق قلبي.. متى توفي؟

ازدردت لوقع السؤال

- الحقيقة هو لم يمت .. هو اختفى.

وبدأت أحكي لها من بداية رؤيتي له إلى قراءتي لروايته إلى مرضه لحد ما ترك رسالته.

حركت راحة يديها على شعرها للوراء وربطته ليظهر للحظة وجه إلينا الفتاة، ثم يختفي لتقول: سالم كان يقول دائمًا. سيأتي أحد من بعدي.. يكتب عني، وله ما أملك (سهمت وحدقة عينها تتحرك على الحائط تستحضر صور متقطعة من الماضي) كنت لا أصدقه، ولا أحفل بكلامه.. الماضي لا يعوض ولا يعود.. سنين طويلة بيننا انقطعت.

وطفا السؤال الحبيس داخلي يظهر، ففتحت الحقيبة وأمسكت دفتر التكوين وأشرت إلى القطعة:

قلت لـ (هو): متى كشف علاقتك بها؟

متى عرف بالأمر (صمت طويلًا ثم قال) سأقول لك ما حدث ولكن ليس الآن. لا تنس أني صاحب الحكاية، ومن حقي اختيار توقيت الإجابة، ولكن تذكر (وأشار بإصبعه) أن النهاية تجلب كل النهايات.

أسدلت أجفانها وجذعها إلى الكنبة وابتسامة تنشق على الفم ملامح من الشباب يتجسد:

- كنا في حفلة المنظمة الدولية.. كنت بفستان أسود وسالم ببدلة كحلية داكنة.. الشتاء والشامبانيا والصخب.. كانت قاعة متواضعة في أحد أدوار الشركة.. رقصنا وشربنا إلى أن قال لي: أريد هواء.. الجو ساخن.. خرجنا إلى البرنده وأشعلنا سجائر هشيش.
- هشيش (قالتها بالعربية).
- سجائر سالم السحرية.. كان يقول أنها سر من أسرار المعابد في مصر (ابتسمت لها) تلامست أجسادنا رغم الشتاء ولم ندر بحالنا إلا ونحن نشهق ونصرخ ورواد الحفلة يتفرجون علينا من وراء الزجاج بدهشة وضحك.. تحدثت الشركة عن جرأتنا ووصل الكلام لعلي .. عليّ بالنسبة لي صديق نقضي معًا وقتًا لطيفًا وفقط.. وسالم كان حريصًا على مشاعره ولم يَلُمْنَا لأنه كان يشعر بشيء ما ولا يدري ما هو.

سكتت وظلال الماضي تتبخر.. وكأنها تتوق للعودة والحكي من جديد.. الزمن ينبطح ويلتوي كوتر يتردد بين الماضي والحاضر (بدأت أتحدث بلسان عمي سالم الآن!)

- بتر علاقتنا عندما نصحني بالزواج بعد مراحل عشتها من اللاتوازن واللاوعي.. لو لم ينصحني ويدفعني إلى معنى الحياة لربما كنت في مكان آخر وحياة أخرى.. أصر على قطع المراسلات .. لكنه في آخر لقاء معي ترك شيئًا.

قامت ودقائق عادت ومعها صندوق خشبي في حجم مُجلد. وضعته أمامي وقالت: أمرني أن أسلم الصندوق لمن سيأتي من بعده، وأن يفتحه بحضوري.

رتاج الصندوق بكلبس معدني .. أي شخص قادر على فضه بسهولة.. رفعت الجزء العلوي لأجد نسخة من المصحف الشريف. أمسكته بيدي وقبلته ووجدت ورقة صفراء مطوية ومجموعة من الأوراق الأخرى محفوظة داخل غلاف من السلوفان الشفاف. أمسكت الورقة الصفراء، مكتوبة باللغة العربية قرأتها بصوت عالٍ:

يا من تقرأ.. يا من أتيت من بعدي من آخر العالم.. يا من تبحث عن الأصل.. لا تبحث عن الأصل.. لا تبحث عن رمادي.. اتركني أحيا بلا نهاية.

أكتب روايتي لأحيا وأواصل الخلود.

سالم الفيروزي

ورقة أخرى بيضاء مكتوب بها:

أوراق حُجة الشقة في مصر. تجدها عندك كاملة وبتوكيل رسمي لحامله. تحصل عليها بمجرد نشر روايتي.

نظرنا إلى بعض مبهوتين، وقالت ناظرة لي بتأثر:

- يُريدك أن تكتب روايته المكتوبة بخط يديه وأن تنهي الحكاية.

هززت رأسي وقلت: أين يكون الآن؟

- يبحث عن الخلود.

في النهاية يتبقى شيء.. بعض السطور.. صفحات منزوية.. مسودة بشعة.. فصول تائهة.. رواية مستمرة وقارئ مجهول.. أحكي على لسانه حكاية عني، والحكايات تختلط.. حتى لا تدري من أين نبع الأصل وخرج الفرع.. والحكاية المتواترة كقطعة من الحجر. تتركه يسقط في بئر عميق. تحسب توتر نقطة سقوطه. لا تُدرك أن البئر يخرج من بركة، والبركة تخرج من بحيرة، والبحيرة من البحر، والبحر من المحيط، والمحيط يكسو الأرض، فيتبدل دورك من القارئ إلى الكاتب، ليأتي يوم ليس بالبعيد، والكل يمسك بالحجارة بكل بساطة وبالتتابع يقذفون الحكايات إلى السماء.

تمت

يبقى السؤال بداخلى -فى تلك الليلة- الدفتر الموجود فى الدرج العريض فى غرفة المكتب. أكانت قصة حياته أم قصة حياة (هو)؟ والحواشى والمسودات المكتوبة بين الفصول إلى أين كانت تؤدى؟

أأكون الآن مجرد شخصية وهمية فى رواية؟

الآن أمسك القلم وأكتب: أنا خالد الفيروزى. شخصية فى رواية، والوحي الرئيسى هو العم سالم الفيروزى. الآن تتبدل الأدوار من القارئ إلى الكاتب ومن المخلوق إلى الخالق .

..لنرَ الحكاية تبدأ..





